

لن نخرج عن مجتمعنا

سؤال: كثير من الذنوب التي ارتكبتها في الماضي لا تفارق أذهاننا حتى إن هناك ما يحض على ارتكابها بعينها كالمناظر السيئة التي امتلأت بها شوارعنا، فأصبحنا لا ندري ماذا نفعل إلا أن ندعو الله تبارك وتعالى أن يكتبنا في عداد الشهداء ونجد سبيلاً للتطهر من الذنوب والآثام.

الجواب: هذا ليس سؤالاً، بل طلباً نابغاً من قلبٍ مُخلص... إنه تعبير عن هموم قلب يحث الخطي جاهداً للدنو من مرتبة الصحابة، ولقد اتخذنا نحن قراراً بالبقاء داخل هذا المجتمع وإن فاضت أسواقه وطُرقاته بالذنوب والآثام.

وأستميحكم عذراً هنا أن أتكلم في هذا الصدد مرة أخرى عن شعورٍ لطالما حدثتكم عنه في مناسبات عدة.

لما كتب الله لي زيارة نبيه ﷺ لأول مرة وذهبتُ إلى الروضة المطهرة كدتُ أصابُ بنوبة جنون، حيث بدا لي كما لو أنني أرى رسول الله ﷺ بذاته، فكنت ألتفتُ يميناً وشمالاً على الدوام قائلاً: يا ترى أين هو!؟

وانتابتني في تلك اللحظة حالةٌ روحيةٌ أستغني معها عن دخول الجنة حتى وإن دعّنتني هي إليها وفتحت لي أبوابها، إن شئتم فأطلقوا على هذه الحالة: المجنون بحب مدينة الرسول الأكرم ﷺ.

لكنني أوصي أصدقائي بأنني لو تركتُ مكاني هذا يومًا وجاوزتُ في المدينة المنورة فما هذا إلّا لحالةٍ روحيةٍ فرديةٍ، فليأخذوا بتلابيبي ويجروني إلى هنا، وإلا فذنبُ انقطاعي هناك عن الناس في رقتهم، أحاسبهم عليه أمام الله.

للمسألة وجهان مختلفان؛ أحدهما هو الشوق الذي لا يُتحمّل للمدينة المنورة، والآخر هو ضرورة رفع التّير الواقع هنا.

أما الأول فهو شخصيٌّ تمامًا، وأما الثاني فهو خاصيّةٌ تتعلق بمصير شعب كامل، والأخرى بمصير العالم الإسلامي بأكمله.

إننا جميعًا نجد أنفسنا أمام الاختيار نفسه، فأنتم أيضًا -على الأقل- عاشقون مثلي لذلك المكان، ولكنكم مضطّرون إلى البقاء في بلادكم للعمل والسعي الحثيث؛ لأنّ أمتنا قد فقدت مكانتها في التوازن العالمي هنا، وأخذت تُمحي هويّةُ جيلها، وانتهى كل شيء، فلو أن هناك أملًا سيزغ نوره من جديد حتى تسير أمتنا إلى الآفاق النيرة فهذا الأمل سيبدأ من هنا، فعلينا إذاً ألا نبرح أو نغادر مكاننا، وأن نكابد ونعاني ونضحي بمشاعرنا وما تحمله من فيوضات ماديّة ومعنوية.

أجل، إنني أعترف أن الآثام كانت تعترض طريقنا، وتواجه كل لحظة بما يجرح أرواحنا، ورغم هذا فنوايانا سليمةٌ خالصةٌ، وتزدان قلوبنا بفكرةٍ يقينية؛ ألا وهي تأييد دين رب العالمين وغرس محبة رسوله ﷺ في شغاف

قلوب جيلنا، والعزم على البقاء حيث كنا، مع الرضا بدايةً بالمصائب
والبلايا التي قد نتعرض لها في هذا السبيل؛ ومن ثم فإننا نفضل البقاء بين
الناس وتحمل مكابرتهم وعنادهم على الإيواء إلى الجبال والآنزواء في
زاوية للذكر فيها، إننا سنعيش داخل المجتمع، ونسحق تحت جنازيره
أحياناً، ومع ذلك سنظل في داخله ولن نخرج عنه.

لأننا مجبرون بل محكوم علينا أن نؤدي وظائفنا حيث كنا، وفي
المكان الذي أقامنا الله فيه.

obeikandi.com

الجهاد الأصغر والأكبر

سؤال: ما معنى الجهاد؟ وهل تفضلتم بتعريف الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر؟

الجواب: الجهاد يعني السعي وبذل الجهد وتحمل شتى أنواع المشاق والصعوبات، إلا أن الجهاد قد تطوّر مع مجيء الإسلام، وصار علمًا على مجاهدة النفس والشيطان، والتصدي للأخلاق السيئة والسلوكيات الذميمة، ومحاربة الأعداء عندما تقتضي الضرورة ذلك، فضلًا عن الحذر والتنبيه والوقوف دائمًا على أهبة الاستعداد،

وجاء في حديث شريف -كما سنرى لاحقًا- أن الجهاد ينقسم إلى قسمين هما: الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر.

ولكن قبل أن نُعرِّج على هذين القسمين أودّ أن أقف قليلًا على أهمية الجهاد.

ليست هناك وظيفة أسمى من وظيفة الجهاد، ولو كان هناك أسمى منها لكُلف بها الأنبياء، ومن ثمّ فَمَنْ كَلَّفَهُمُ اللهُ بهذه الوظيفة هم أشرف الناس، والملائكة التي حملت ونقلت هذه الوظيفة إلى الأنبياء هم أشرف الملائكة، وعلمنا أن نعرف -أولًا وقبل كلّ شيء- أن أغلب المصطفّين الاختيار من لدن آدم عليه السلام حتى يومنا هذا -أنبياء كانوا أم أولياء- ما بلغوا هذه المرتبة من الاصطفاء إلا بفضل الجهاد ومحاسبة النفس.

إن الجهاد هو عملية وصول الإنسان إلى ذاته، أو إيصال الآخرين إلى ذواتهم، فهو -من أحد جوانبه- بمثابة الغاية من خلق الإنسان، ولذا فهو يحمل أهمية عظيمة، وله قيمة مقدسة ومبجلة عند الله تعالى.

فهناك بونٌ شاسع للغاية لا سبيل إلى تسويته بالأعمال الأخرى بين من يتخلفون عن الجهاد بلا عذر ألبته وبين المجاهدين الذين يقضون حياتهم في هذا السبيل، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
(سورة النساء: ٩٥/٤).

فلا يمكن أن يتساوى مطلقاً من يجاهدون في سبيل الله ويتخذون من تبليغ الدعوة منهجاً ونبراساً لهم مع غيرهم، ولنوضح هذه المسألة ونبسّطها بالمثل التالي:

النبوة هي وظيفة كلف الله بها بعض المصطفين من الناس، وعلى ذلك فمهمتهم هي التعريف بالله وتبليغ الدين الذي جاؤوا به، وهذه المهمة هي ما تستلزمه وتقتضيه وظيفة النبوة، إن الناس يضطلعون بوظائف متعدّدة تستلزم مهامّ متعددة كذلك؛ فالحلاق والنجار والسراج أو أي صاحب مهنة لهم أهداف وغايات يعتبرونها النقطة المثلى بالنسبة لهم، ويجب ألا ننسى أن كل مهنة من هذه المهن وما تتطلبه من مهام تُقيّم بالنظر إلى هدفها المنشود، بمعنى أن قيمة مهنة الحلاقة تُقدّر بغاياتها وأهدافها النهائية، وهكذا الخياط والسراج.

وإن شئتم ففكّروا في مهن أرقى، فلو اعتبرنا نيابة البرلمان أو رئاسة الوزراء أو رئاسة الجمهورية مهنةً فما قرّناه سابقاً يسري على هذه المهن أيضاً، وكل هذه المهن تُقيّم وفقاً للنتيجة التي سيتم التوصل إليها في النهاية. والآن تأملوا في وضع الإنسان من حيث بداية كلّ شيء ونهايته، فالإنسان بدايته نقطة ماء قدرة مضطّر إلى غسلها إذا ما سقطت فوق ملابسنا، ونهايته جُثَّةٌ نَبَنَةٌ... أليست هذه هي بداية الإنسان ونهايته؟ وهذه هي آخر نقطة يصل إليها الناس أيّاً كانت وظائفهم ومهماتهم، بيد أن وظيفة النبوة ليست هكذا قطعاً؛ ففي أهدافهم أفق ونقطة مثالية، غير أن هذه النقطة لا تفسد أو تتعفن كما يحدث عند الآخرين.

إن الهدف المنشود عبر وظيفة النبوة هو:

تعريف الإنسان بالله، ووصول الإنسانية إلى الخلود بواسطة هذه المعرفة، وهذا يتحقّق بأن يرجع الإنسان -الذي استهلّ الفرشية عند ميلاده- مرة أخرى ويصل بالعرشية إلى الله... ثم كشف الإنسان تجليات البقاء في هذا العالم الفاني، واستشعاره بألوان الوجود في الفناء؛ حتى يصير بأفكاره قوساً لألوان الطيف مرشّحاً للخلود والبقاء... وقوس ألوان الطيف يُشبه قوس النصر، إلا أن الأخير يمرّ الناس من تحته دفعةً واحدةً، أما قوس ألوان الطيف الأبديّ فبسبب رِقَّتِهِ وشفافيّته يظلّ الإنسان يسير تحته ساعاتٍ وساعاتٍ ولا يمكنه أن يتجاوزه، وهكذا فقد جاء الإنسان مرشّحاً لهذا الخلود، وما استطاع أن يفجّر هذا الشعور وتلك الحقيقة الكامنة في ماهيته إلا الأنبياء الذين يحملون وظيفة النبوة على عواتقهم.

ومن ثمّ فإن وظيفة النبوة هي أقدس وأنزه الوظائف، حتى إن الحقّ ﷻ قد لفت الأنظار بعد ألوهيّته إلى تلك الوظيفة، وهكذا فالجهاد هو أقدس

مهمة في تلك الوظيفة القدسية، وبما أن كل مهنة من هذه المهن وما تتطلبه من مهام تُقيّم وفقاً للهدف المنشود فإن الوسيلة التي توصل إلى ذلك الهدف المُقدّس هي أيضاً على نفس المستوى من القدسيّة.

وبسبب أهميّة الجهاد أثنى القرآن الكريم على تلك الجماعة التي بايعت الرسول ﷺ على الجهاد وعاهدته على ذلك، يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الفتح: ١٠/٤٨).

وفيما يلي خلاصة الحادثة التي نزلت فيها هذه الآية:

بشر النبي ﷺ أصحابه بدخول مكة والطواف حول الكعبة، فبات الجميع في فرح وسرور، فمنذ سنين وقلوبهم تهفو حيناً إلى مكة ورؤية البيت الحرام.

وكيف لا؟ فلقد عشقناها نحنُ وتُيْمِنا بحُبِّها برؤيتنا لها مرّةً أو مرّتين، وتتألم قلوبنا شوقاً ولَهْفاً لما يتعدّر علينا الحجّ إليها، إنها مسقط رأس سيّد الأنبياء محمد ﷺ، وإن أوّل بيتٍ وُضِعَ للناسِ على وجه الأرض هو في تلك البقعة المباركة من البيت الحرام.

إن هذه الكعبة كما قال الشاعر "نابي" هي مطاف القدسيين والملائكة من الأرض إلى سدرّة المنتهى.

أجل، كان يعتَصِرُ المسلمين شوقٌ عارمٌ إلى هذا البلد الأمّ الذي وُلدوا وترعرعوا فيه، والذي تهفو أرواحهم للوصال به، ثم الطواف بالكعبة التي يطوف بها القدسيون، والعودة كرهةً أخرى إلى المدينة التي آوتهم

وفتحت أبوابها لهم، غير أنهم فوجئوا بحادثة لم تكن في حساباتهم؛ فقد أعلن مشركو مكة رفضهم لدخول المسلمين حاجين هذه السنة، وأنهم لن يتهاونوا في محاربة من يحاول الدخول عنوة... لقد أحدثت هذه الواقعة المفاجئة وقعاً كبيراً بين المسلمين؛ فلا أحد يريد أن يصدق ما سمعه؛ حيث كانوا يعتبرون أن هذا الصدد من المشركين بمثابة ضربة قوية موجّهة إلى صدر الإسلام وعزّته، فثارت ثائرتهم، واستشاطوا غضباً، إلى أن بلغ السيل الزبى، ولم يعد أحد يسمع للآخر، وكأن كل واحد منهم قد أصيب بالتخبط والتعثر من هول المفاجأة.

في تلك الأثناء تماماً دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى البيعة، وعندما تُذكر "البيعة" تفق المياه الجارية، وتكف عن خريها أدباً؛ فالآن يصطف المسلمون ويباعون رسول الله ﷺ؛ يشدّون على يده، ويباعونه على الولاء المطلق، وعلى الموت، ولقد بجل القرآن الكريم هذه البيعة وذلك العهد، وأشار إلى مدى درجة قرب هؤلاء الصحابة من الله بسبب صنيعهم هذا، وهذا أيضاً مظهر آخر للقيمة التي أولّاها الإسلام للجهاد...

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
(سورة التوبة: ١١/٩).

فهؤلاء أناس باعوا أنفسهم وأبدانهم وكل ما يملكونه مقابل الجنة ونيل رضا الله تبارك وتعالى، ولقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك الصنيع بالبيع والشراء، وهذا مقام يرقى بالإنسان إلى مستوى يستطيع من خلاله معاملة ربه ﷻ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ" ^(٤٤)، فمن يدري كم من المرات كان من الممكن أن يكرر رسول الله ﷺ هذا القول إن لم يخش الإطالة في الكلام!

وبإمعان النظر قليلاً يتضح لنا أنّ هذا القول فيه معنى الخلود، وهو ما يمكن استنباطه من قوله: "ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ".

تأملوا جيداً... إن الذي يطلب هذا هو سلطان الأنبياء محمد ﷺ، فما عرف المسلمون قيمة الجهاد إلا من الله ورسوله ﷺ، يقول الرسول الأكرم صلوات ربي وسلامه عليه:

"رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا" ^(٤٥).

ولكم أن تتأملوا! يومٌ يُرَابِطُ فيه الإنسان على ثغورِ بلده، مُتَّصِدِيًا لَأَيِّ خطرٍ محتملٍ أو عدوٍّ يهدّد أمنها خيرٌ له من الدنيا وما فيها، فلو قال إنسان: إنني بمرابطتي على ثغور بلدي أقوم بمهمة أهم من مهام الكعبة فلا يُعَدُّ كاذباً؛ لأن الكعبة تدخل أيضاً ضمن قول سيدنا رسول الله ﷺ: "خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا".

وفي رواية أخرى يقول ﷺ: "رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجِرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفِتَانُ" ^(٤٦).

وثمة أحاديث وآيات كثيرة عن فضل الجهاد وأهميته، إلا أننا نكتفي بهذا القدر لأن هذا ليس بموضوعنا الآن.

(٤٤) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ٧؛ صحيح مسلم، الإمامة، ١٠٣.

(٤٥) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ٧٢.

(٤٦) صحيح مسلم، الإمامة، ١٦٣.

الجهاد هو محاولة الإنسان للوصول إلى حقيقة ذاته، باستغلال قوته، وإرهاق نفسه، وتحمل كل المشاق التي تعوق جريان الحياة، وهذا هو الجهاد الأكبر، أما عملية إيصال الآخرين للتكامل مع ذواتهم فهو الجهاد الأصغر.

لما أفل النبي ﷺ عائداً منتصراً من إحدى معاركه قال مخاطباً صحابته: "قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ، وَقَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ"، قَالُوا: وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ" (٤٧).

وهذا القول يعبر عن وجهين مختلفين لحقيقة واحدة، فكلاهما فيه تركية للبشرية ومحاولة للوصول بها إلى الكيفية التي يبتغيها ربنا تبارك وتعالى، وعلى ذلك فالجهاد بنوعيه الأصغر والأكبر يعبر عن وجهين مختلفين لحقيقة واحدة.

أوليس وصول البشرية إلى تلك الماهية هو الهدف المنشود من إرسال الرسل ﷺ؟! كما قال ربنا ﷺ في كتابه الكريم:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٥١/٢).

لقد أرسل الرسل ﷺ لرفع الغشاوة عن أعين الناس، وإعانتهم على قراءة آيات الله تعالى، وعند تحقّق تمام ذلك تتقوّض جميع العراquil والعقبات في قلوب الناس وأفئدتهم، وتتغيّر النظرة برمتها إلى الحوادث والأشياء، وتكتسب الحياة التي صمّ الناس فيها وعموا قيمةً ومعنىً بفضل النور الذي جاء به هؤلاء الأنبياء، أجل، إن قراءة الآيات التكوينية وفهمها لا يتأتى إلا بهؤلاء الرسل.

فالنبي هو من يعمل على تزكية الناس وإيصالهم إلى ذواتهم؛ لأن الناس بحاجة إلى معالجةٍ خاصّةٍ كالمعادن، فلا بدّ من إذابتهم في بوتقة معيّنة؛ حتى يحصلوا على الهوية المطلوبة بما يطرحونه من نفايات عالقة بهم وأشياء غير نافعة لهم.

أما الهوية المطلوبة فلا جرم أنها الهوية التي يرتضيها الحق ﷻ، ولا يتحقّق الوصول إليها إلا بإرشاد الرسل، فمن المتعذّر مطلقاً أن نصير كالفضّة الخالصة أو الذهب الخالص إلا بالدخول في منجم الإذابة والاتصال بالله تعالى.

وهناك أمرٌ لافتٌ للنظر في هذه الآية، ألا وهو تعليم النبي للكتاب والحكمة، فلو كان المقصود بالكتاب هنا القرآن فهذا يعني أن الحكمة غير القرآن؛ لأنه لا يجوز أن نكرّر نسبة الشيء إلى نفسه، ومن ثم نفهم أن الحكمة هي السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

وفوق ذلك سيظلّ النبي يعلمنا ما لم نكن نعلمه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فهذا الخطاب ليس حِكْراً على إنسان عصر النبوة، بل يُفْهَم منه أن هناك كثيراً من الأمور سيظل الناس يتعلمونها من الأنبياء حتى يوم القيامة.

إننا تعلمنا من رسولنا ﷺ -فيما يتعلق بحياتنا الشخصية- سُبُلَ تطهير القلب، حتى نشأ بين تلامذته ﷺ من هم أمثال سيدنا علي كرم الله وجهه الذي تُعزى إليه مقولة: "لو كُشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً"، ومن حدسوا الأسرار في السماء وهم على الأرض كالشيخ الكيلاني، والآلاف ومئات الآلاف من أمثال الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وبشر الحافي... كل هؤلاء كانوا ثمرات مباركة لهذه التربية العظيمة، فلو كان هناك نبوة

بعد النبي ﷺ لحلق كل واحد منهم في سماء النبوة كما حدث في عهد أنبياء بني إسرائيل.

أجل، كثيرة هي الأمور التي علّمها النبي ﷺ للبشرية وسيظلّ يعلمها، لقد تعلّمت البشرية منه ﷺ كثيرًا من المسائل المعجزة للعقول حتى الآن، فلن يكتب للبشرية النجاة في المستقبل من ظلمات الجهل إلا بفضل النور الذي جاء به، وعندها ستتقدّم البشرية بين هالات من الضياء حتى تحيط بكل الأنوار، وسترتقي بالمعارج النورانية إلى ذرى العلم والفن والتقنية.

إن النهج النبويّ هو النهج الذي ورّثه النبي ﷺ لرجال الدعوة من بعده، وعهد إليهم بتزكية الناس، والوصول بهم إلى درجات الكمال، وإيصالهم إلى ذواتهم؛ حتى يبلغوا درجة يرتضيها خالقهم ﷻ، ولا يتأتى تحقيق هذه النتيجة إلا بالجهاد؛ يعني إزالة الموانع والحواجز بين العباد وربّهم.

إن وظيفة الجهاد تتساوى مع وظيفة الشهادة على وجود الله، ففي المحكمة نستمع لأقوال الشهود حتى نعلم من صاحب الحق، ولا جرم أن هذه الشهادة يُعتدّ بها عند صدور الحكم، وهكذا يفعل المجاهدون أمام الملأ الأعلى عندما تنعقد المحكمة للجهلاء المنكرين لوجود الله، يرفعون عقيرتهم بالصياح شاهدين على وجود الله، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة آل عمران: ١٨/٣).

أجل، إن الله يشهد على وجوده، ومن يصلون إلى هذه الحقيقة في ذواتهم يشعرون بها، لدرجة أن الكتب جميعها تعجز عن شرح ما يشعرون به في أفئدتهم.

والملائكة شهداء على وجود الله، خلقهم الله من ماهية صافية، وفطرة نقية لا شائبة فيها، ومن ثم لم يستطع الشيطان إغواءهم أو تضليلهم، فلم تفسد بنيتهم ألبتة، فهم كالمرآة عند النظر إليهم تترأى تجليات الحق ﷻ. وأولو العلم شهداء أيضًا على وجود الله، ولو أنكرت الدنيا بأسرها وجود الله لكفت هذه الشهادات الثلاث.

أجل، إننا نستشعر هذه الحقيقة بكل ما فيها من وضوح وعظمة في أفئدتنا، نستشعر بها دون حاجة إلى التنقيب عن دليل آخر، وهذه الشهادة كافية للملا الأعلى، وإن كان العمي والصم على الأرض لا يسمعون قعقة الكون ولا يدركون صنعة الله فتكفيهم شهادة أولي العلم على ذلك. إن شهداء الله سيُنجّهون إلى أكثر الأسقاع ظلامًا على الأرض والتي تنكر وجود الله، ويصيحون بأعلى أصواتهم: "نحن شهداء الله على الأرض".

أجل، هكذا جاء الرسل مشحونين باستعداداتٍ عالية حتى يؤدوا مهمة الشهادة.

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (سورة النساء: ١٦٥-١٦٦).

لقد أشرق الأنبياء في كل الأمم كالشموس التي تُنير الأفاق، فالعهود تدور كما تدور الأرض تمامًا، ويظهر النبي كالشمس في كلِّ عهد، لئِنْ العَصْرَ المَظْلَمَ الذي جاء فيه، وأخيرًا جاء نبينا ﷺ فأضاء كلَّ العصور، ولذا خاطبه ربه تعالى في قرآنه قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٤٥/٣٣).

ولقد تصدرت "أل" العهدية لفظة "النبي" في الآية، ليدل على أنه نبي معروف ومشهود بنبوته.

فإذا نظرت إلى أي جانب فيه تجد دلائل على نبوته، شهدت على نبوته الجمادات بحتياتها، والنباتات بإيماءاتها، والحيوانات بانحناءاتها.

إنه نبي معلوم ومعروف من قبل الجميع، ولا سبيل إلى إنكار ذلك، ومن ثم نجد القرآن يخاطبه قائلاً: "يا أيها النبي"، ويكفي لأن نعرف أنه نبي معلوم أيضاً أن القلوب الجامدة كالحجارة تتصدع وتذوب أمامه ﷺ.

"شاهداً" يعني إنا أرسلناك شاهداً على الإنسانية، تبليغهم ديني وتكون لي شاهداً عليهم، وإن كذب العالم بأسره وجحد لأعلنت أنت عن وجود الله، وبذلك أنت شاهد، وأمتك التي تأتي من بعدك شاهدة أيضاً، هم سيشهدون على جميع الإنسانية، وأنت ستشهد على شهادتهم قائلاً: "هؤلاء أمتي"، فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يحيى نوح وأمه، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمه: هل بلغتكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد رضي الله عنه وأمه، قال الراوي: قال النبي ﷺ: فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (سورة البقرة: ١٤٣/٢) والوسط العدل ^(٤٨).

إنه إنسان يشر الناس في طريق الخير، ويحذرهم من عاقبة السير في طريق الشر، وعلى ذلك فروح الجهاد مكنونة في هذه الحقيقة، وقد أرسل الأنبياء لأداء هذه الوظيفة السامية؛ يضيئون العالم وينورونه، ويشرقون ويغربون كالشمس في آفاق السماء، وبذلك لن ترى الإنسانية

وجه الظلام، ولن يتبقى فؤاد لم تبلغه الحقيقة ولا باب لم يفتح على الحقيقة ولا نافذة لم تدخلها الحقيقة، سينفذ الحق والحقيقة إلى كل بيت، وسيستفيد الجميع منهما.

وعلى ذلك نجد أن مفهوم النبوة كان مستقرًا في أذهان وأفكار الناس من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ، ومنه إلى يوم القيامة، حتى وإن كان هذا المفهوم غامضًا ومبهمًا لدى البعض، فما صدرت بعض أطراف هذا المفهوم إلا عن النور الذي جاء به الأنبياء ﷺ قديمًا.

والواقع أن من عاشوا في الفترة بين نبيين قد انحرفوا غالبًا عن الطريق المستقيم، وانساقوا إلى أفكار ومفاهيم ضالة، لكن لم يعد هناك بيت لم ينفذ فيه معنى النبوة، وإن روح الجهاد وفكرته التي تعلن عن نفسها صراحةً أو ضمناً في أفئدتنا اليوم ما هي إلا أثرٌ لنسمات النبوة الطاهرة؛ لأن كل الأنبياء على التوالي قد كرّسوا حياتهم لنشر الحق والحقيقة، فأصبحوا أكمل ممثلين للجهاد؛ أصغرهِ وأكبرهِ.

الجهاد الأصغر ليس هو شكل الجهاد الذي يؤدي في جبهة القتال فحسب، فهذا النمط من الفهم يقلص أفق الجهاد، حيث إن ميدان الجهاد واسع جدًا يمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وعلى سعته وشموله قد يكون كلمة واحدة أو سكوتًا وصمتًا أو تبسمًا وطلاقة وجه أو امتعاضًا ونفورًا أو تركًا لمجلس أو مشاركة فيه... وباختصار هو القيام بأي عملٍ من الأعمال لوجه الله، وتقويم الحب في الله والبغض لله في هذا السبيل... ومن هنا فإن كل جهد يُبذل لإصلاح المجتمع في أي ميدان كان من ميادين الحياة ولأي شريحة من شرائح المجتمع، كل ذلك هو من مضمون الجهاد الإسلامي، بمعنى أن ساحة الجهاد الأصغر تمتد

من العائلة والأقارب القرييين والبعيدین والجار الجنب والصاحب بالجنب، حتى تشمل الدنيا كلها، والجهاد الأصغر بهذا المعنى هو جهاد ماديّ، أما الجهاد المعنويّ فهو الجهاد الأكبر، ويعني جهاد النفس والعالم الداخلي للإنسان، فمتى ما أوفى الإنسان بهذين الجهادين فقد تحقّق التوازن، وإلا اختلت الموازنة الموجودة في روح الجهاد وحقيقته.

ولقد تلقّينا مفهوم الجهاد بنوعيه الأصغر والأكبر عن النبي الأكرم ﷺ كما تلقينا عنه كل شيء.

وفي الواقع إننا لم نستطع بعد أن نستوعب فقه سيرته صلوات ربي وسلامه عليه، لقد حمل ﷺ على عاتقه وظيفة نشر الحق والحقيقة، فقام بها بشكل منظم وأرساها على مبادئ سليمة فيها من المرونة ما يكفل ديمومتها حتى يوم القيامة، فإن فهمنا القضايا على هذا النحو فلن يتعدّر علينا أن نعرف أن النبي ﷺ لم يقم بحركة عشوائية قط، ولم يترك نفسه لجريان ظواهر الأمور.

لقد كان رجل خطّة وبرنامج، ربما لم يكن يكتب أو يخطّط أو يرسم رسمًا بيانيًا لما يفعله بالصورة التي يفهمها الإنسان اليوم، ولكنه كان كمن يسير على نظام ومنهج قد أعدّه مسبقًا، وهذا من دلائل نبوته وصدق تخلّقه بأخلاق الله ﷻ.

كان رسول الله ﷺ في العهد الأوّل من دعوته يصليّ في الكعبة على الدوام، لا لفضل الصلاة في الكعبة فحسب، بل ربما لغايات كان ينشدها النبي ﷺ من وراء هذا الفعل، وربما كان هذا السبيل الوحيد في ذلك اليوم وتلك الحقبة الزمنية لشرح الحق والحقيقة بهويتها وصورتها النقيّة.

كان لا بدّ أن يتكلم مع الشباب، غير أنه كان من قبيل المستحيل أن يذهب إليهم ويتحدّث معهم في أمور تخصّ دعوته؛ لأنهم جميعاً كانت لهم تصرّفات مفرطة ناتجة عن أنفة الشباب، فلو هم بمحادثاتهم فلربما قابلوه بتصرّفات غير لائقة، ولذا كان يذهب إلى الكعبة ويربهم بالفعل صلته بربه حالاً لا قالاً؛ ممّا كان يخلق عندهم نوعاً من الفضول وحب الاستطلاع، فكانوا يأتون إليه ويسألونه، وعند ذلك كان ﷺ ينتهز الفرصة للحديث معهم عن الدعوة المباركة، ومن ثم كان ﷺ يفضّل الصلاة في الكعبة على غيرها من الأماكن.

وقد تعرض النبي ﷺ لاعتداءات شتى وهو يصلي لربه في الكعبة، بيد أنه لو صلى في بيته ما تعرّض لمثل هذه الاعتداءات، وهذا يعني أن هناك مغزى ما من وراء صلاته في الكعبة رغم كلّ المعاناة التي كان يلاقيها، فكم وكم أودّي وأُلقي عليه سلا جزور! وكم مرّة تعرّض للإيذاء والاعتداء من قبل المشركين الذين كانوا يستهدفون قتله.

وذات مرّة توعد أبو جهل النبي ﷺ بأن يلقي عليه حجراً كبيراً يقتله به، ووعد من حوله من صناديد مكة بذلك، وفعلوا أخذ حجراً كما وصف، ثمّ جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وعدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ يصلي وقد عدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتّى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقِعاً لونه مرعوباً قد يسست يداه على حجره، حتّى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له: ما لك

يَا أَبَا الْحَكَمِ؟ قَالَ: قُتِلْتُ إِلَيْهِ لِأَفْعَلَ بِهِ مَا قُلْتُ لَكُمْ الْبَارِحَةَ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ عَرَضَ لِي دُونُهُ فَحُلُّ مِنْ الْإِبِلِ، لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَامَتِهِ، وَلَا مِثْلَ قَصْرَتِهِ وَلَا أَنْبَاهِهِ لِفَحْلٍ قَطُّ، فَهَمَّ بِي أَنْ يَأْكُلَنِي^(٤٩).

وفي مرة أخرى "بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُقْبِهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾! (سورة غافر: ٢٨/٤٠)"^(٥٠)، في الحقيقة هذا القول الذي ذكره سيدنا أبو بكر رضي الله عنه هو قولٌ تاريخيٌّ، فقد قاله من قبله بعدة عصور رجل مؤمن من آل فرعون يكتنم إيمانه، وهكذا شَرَّفَ اللهُ ﷻ هذا القول بأن جعله آية في كتابه الكريم، لم يكن سيدنا أبو بكر رجلاً قويَّ البدن، إلا أن قُوَّةَ إيمانه جعلت منه إنساناً لا يُقهر.

فإن لم تكن تحرسه ﷺ عناية خاصة لَوَقَعَ ضَحِيَّةً في واحدةٍ من الإيذات التي تعرض لها في صلاته وعند سجوده، لكنَّ الله تعالى قد تكفل برعايته وحفظه فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (سورة المائدة: ٦٧/٥)، لدرجة أنه كان لا يهاب الموت ويقدم عليه حتى يصلي في الكعبة، وهذا يعني أن فعله هذا كان ينطوي على أهميَّةٍ جُذِّ جليلة، وكأن حياته التي أقسم الله تعالى بها فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة الحج: ٧٢/١٥) كانت هيَّنة بالنسبة له.

ولما ضاق الخناق على المسلمين في مكَّة خرج أبو بكرٍ مُهاجِراً نَحْوَ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ "بَرْكَ الْغَمَادِ" لَقِيَهُ "ابْنُ الدَّغْنَةِ" وَهُوَ سَيِّدُ

(٤٩) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢٩٩/١.

(٥٠) صحيح البخاري، المناقب، ٨٩.

"الْقَارَةَ"، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغْنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ، ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَارْجِعْ وَارْتَحِلْ مَعَهُ ابْنُ الدَّغْنَةِ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغْنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتَخْرَجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكُلَّ وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ؟! فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجَوَارِ ابْنِ الدَّغْنَةِ، وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغْنَةِ: مَرُّ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيَصِلْ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ وَلَا يَسْتَعْلِنَ بِهِ، فَإِنَّا نَحْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغْنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَأَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَأَبْتَنَى مَسْجِدًا بِفَنَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَذُفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَاءً، لَا يَمْلِكُ عَيْنِيهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغْنَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجْرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجَوَارِكَ، عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَأَبْتَنَى مَسْجِدًا بِفَنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَانْهَهِ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلْ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يَغْلِنَ بِذَلِكَ، فَسَلِّهِ أَنْ يَزُودَ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقَرِّبِينَ لِأَبِي بَكْرٍ إِلَّا السَّيْغَلَانَ، فَأَتَى ابْنُ الدَّغْنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتَ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِنَّمَا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنَّي أَخْفَرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:

فَإِنِّي أُرِدُّ إِلَيْكَ جَوَارِكَ، وَأَرْضِي بِجَوَارِ اللَّهِ ﷻ^(٥١). لقد كان مبدؤهم الوحيد هو عدم الانصراف عن الجهاد بالقول أو الفعل طالما كان هذا ممكناً؛ لأنهم يعلمون جيداً أن حياة الفرد والمجتمع لا تتأتى إلا بالجهاد، أما من يتخلّون عن الجهاد فمحكوم عليهم بالعنف والفساد، وفي الوقت ذاته فإن الدخول في جوار الله تعالى لا يتأتى إلا بنصرة دينه، وهذه الحقيقة يبينها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سورة مُحَمَّد: ٤٧/٧).

أجل، إن تنصروا دين الله ينصركم الله ويعنكم، ولا يضيعكم ولا يضللكم، فإن كانت لديكم رغبة في عدم الانحراف في حياتكم فاتخذوا من الجهاد والمجاهدة غاية لكم، واجعلوا كل تصرّفاتكم من طعام وشراب ونوم وبقية خدمة لهذه الغاية؛ حتى تؤدّوا أصغر أنواع الجهاد. ولنعدّ مجدداً إلى مكة بخيالنا، ونتعقّب سلوك النبي ﷺ:

لقد اشتدّت الوطأة على المسلمين، وأذن لبعض المسلمين بالهجرة إلى الحبشة لعدم قدرتهم على تحمّل أذى المشركين، وهذا يعني أن الجهاد عند هؤلاء كان هجرة، لأن الهجرة أصبحت بعد فترة هي عين الجهاد، وباتت الهجرة شرطاً أولياً لكلّ من يريدون البيعة.

بعد الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة توجّه كل المسلمين إلى المدينة دون استثناء، وفي عهد المدينة اكتسب الجهاد مفهوماً آخر، فقد وضع الجهاد في المدينة حجر أساس الدولة هناك، وكان هذا يتطلب جهاداً يتوافق مع الظروف الجديدة، لم يكن هناك تغيّر في الماهية، بل في الشكل بما يتوافق مع الظروف آنذاك، فأحياناً يتطلب الأمر السرعة

وأحياناً البطء، وأحياناً الانطلاق وأحياناً التوقّف وتنشيط عملية الاستعداد على الدوام، وهذه هي الأوجه الإستراتيجية للجهاد، وكان من الطبيعي للغاية أن يتغيّر العصرُ وفقاً لمجريات الأحداث.

لم يستطع المسلمون أن يضطلعوا بأي جهاد فعلي حتى اللحظة التي أُذِنَ لهم فيها بالجهاد، فقد كانت هذه الفترة فترة المقاومة السلبية، وكان المعتدي والمهاجم على الدوام جبهة الكفر، والمسلمون هم الذين يقع عليهم كلّ أنواع الظلم والاضطهاد، ومع ذلك لم يفكروا في مقابلة اعتداء المشركين بأي شيءٍ لأنه لم يؤدّن لهم حتى تلك اللحظة بالجهاد المادي. مرّت فترةٌ هكذا بعد الهجرة، وسرعان ما نزلت بعد ذلك الآية التي تأذن للمسلمين بالجهاد.

يقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحج: ٣٩/٢٢-٤٠).

إن هؤلاء الذين قيل لهم أمس: "لا تلجؤوا إلى القوة" قد تلقوا -والعدو على الأبواب- الإذن بالجهاد المادي، وأصبحوا يترقبون الفرصة التي يفعلون فيها هذا الإذن، ثم بعد ذلك سرعان ما تحوّل هذا الإذن إلى أمر، واضطرّ المؤمنون إلى الجهاد وإشهار سيوفهم في وجوه أعدائهم.

كان المسلمون يسيرون إلى غزوة بدر في فرح وسرور وكأنهم قد تلقوا دعوةً من الجنة، وكأنهم ليسوا هم الذين سيُعَرّضون أرواحهم

للخطر بعد قليل، كانوا جميعًا يحتفون بالموت في هذا السبيل؛ فلم يتردد أحدٌ منهم في تلبية الدعوة إلى الجهاد، غير أن المنافقين كانوا يُشَتَّتون شملَ المسلمين كعادتهم دائمًا، يتركون النبي ﷺ في المعركة ويذهبون، وكانوا أحيانًا لا يشتركون في الحرب مع المسلمين، فهؤلاء لم تصُف سرائرهم، ولم يستطيعوا أن يتغلبوا على نفاق قلوبهم، عند القتال يتخلّون عن أصحابهم وينزؤون عن المعركة في ناحية ما، ويشتغلون بمتعهم الشخصية. أجل، إن هؤلاء قد ضعفت نفوسهم، وتدنت أرواحهم، فكانوا يفعلون ما تقتضيه طبائعهم.

أما أولئك الذين آمنوا برسول الله ﷺ قلبًا وقالبًا فلم يتخل واحدٌ منهم عن موقعه، وبتعبير آخر: وصلوا إلى الله بالجهاد في سبيله، فلما وصلوا كانوا صُبرًا عند الحَرْبِ، صُدُقًا عند اللِّقَاءِ، أما المرتدون الذين ضلّوا الطريق فكانوا مساكين؛ عجزوا عن إدراك هذه الحقيقة، ولم تمتزج أرواحهم بها.

والواقع أن هؤلاء بشرٌ أيضًا، وكل إنسان قد يعتبر الموت أمرًا كريهًا بغضًا، ومن ثم لم يتجاهل القرآن الكريم هذا الشعور عند الإنسان فقال مخاطبًا إياه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢١٦/٢).

ورغم طبيعة الإنسان تلك إلا أن المؤمنين قد أذعنوا لأمر رسول الله ﷺ وأطاعوه دون قيد أو شرط، وهذه التبعية كانت سببًا في نزول فيوضات الله تترى عليهم، وإحرازهم النصر على التوالي.

وهكذا وبمرور الأيام ازدادت قوة المؤمنين، وسمعت القبائل المجاورة بالنصر الذي أحرزوه في وقتٍ يسير، وبينما كان هذا النصر مصدر سعادة للمؤمنين كان غمًا وكدرًا بالنسبة للكافرين.

ويستمر الجهاد كحلقات السلسلة المترابطة، ويجد المؤمن فيه دائماً طمأنينته وحيويته، ومتى ما تخلى عن الجهاد فليضع موته نصب عينيه. أجل، إن المؤمن كالشجرة المثمرة، تحافظ على حيويتها طالما أثمرت فإن لم تثمر جفت ويبست.

أمعنوا النظر في وجوه جميع الثُعساء والمتشائمين يترأى أمامكم أناس قد تخلّوا عن الجهاد، ولأنهم لم يُبلّغوا الحقّ والحقيقة إلى الآخرين قطع الله فيوضاته عنهم، فظلّوا في ظلمةٍ حالكة السواد، ثم انظروا إلى المجاهدين جميعاً تجدوهم في نشوةٍ وحبور، وداخلهم مفعمٌ بالحيوية والنور، وهُمُّهم هو مضاعفة الثواب والأجور، كل جهاد يولّد جهاداً جديداً لديهم، وبذلك تتشكل الدائرة الصالحة، وكل خير هو وسيلة لخير جديد؛ لذا فهم يجولون ويصلون في الخيرات.

وهذا ما تبينه هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩/٢٩).

ثمّة سبل متعدّدة للوصول إلى الله، وهذه السبل عددها بعدد أنفاس المخلوقات، والله ﷻ يهدي المجاهدين في سبيله إلى أيّ واحدٍ من هذه السبل يسلكون، فيُبرز لهم كلّ سُبُل الخير ويقىهم جميع سُبُل الشر.

وسبيل الله هو الصراط المستقيم، ومن سلّكه سلك الطريق الوسط في كل شيء، وكما يتّخذ الإنسان طريق الوسط في الغضب والعقل والشهوة

فإنّه يواظب على هذا الطريق في الجهاد وأداء العبادات أيضاً، وهذا يعني أن الله تعالى يهدي الإنسان إلى سبيله.

إن الجهاد الموجه إلى الخارج مهما بلغت فيه التضحية والفداء فإنه بمجموعه يُعدّ ضمنَ الجهاد الأصغر، وكونه جهاداً أصغر إنما هو بالنسبة للجهاد الأكبر، وإلا فليس فيه جهة صغيرة قطّ، بل العكس هو الصحيح لأن ما يُكسبه من نتيجة هي عزيمة للغاية، وكيف لا تكون عزيمةً وهي ترشح المجاهد للدخول إلى الجنة! وإذا ما استشهد فله الحياة الكاملة في البرزخ، ولا شك أن غاية الجهاد بكلا نوعيه الأصغر والأكبر هي نيل رضا الله تعالى، وكيف يكون صغيراً جهاداً له هذه النتائج الجليلة والغاية النبيلة؟!

فالجهاد الأصغر إذاً هو تنفيذ أوامر الدين عملياً وأداء الإنسان ما كُلّف به، أما الجهاد الأكبر فهو أداء كلّ هذا بوعي وإخلاص، ومراقبة دائمة للنفس ومحاسبة لها، فضلاً عن ذلك هو إعلان الحرب على جميع العقبات والعوائق الكامنة في النفس الإنسانية التي تُبطئ به عن الكمالات من حقدٍ وحسدٍ وأنانيةٍ وغرورٍ وكبرٍ وفخرٍ وأمثالها من الأمور التي جُبلت عليها النفس الأمّارة بالسوء، فهذا الجهاد عسيرٌ وشاقٌّ ولهذا سُمّي بالجهاد الأكبر.

والإنسان طالما هو في حومة الجهاد المادي الأصغر لا يجد فرصة -في أغلب الأحيان- للتفكير في نفسه، وهذا هو الخطر الأول، أما الخطر الثاني فهو الانحلال والفساد الذي يظهر جلياً عندما يتخلّى الإنسان عن الجهاد الأصغر.

فالشخص المعرض لمثل هذا الموقف تحيطُ به الأفكارُ الفاسدة من جهاته الأربع، وتعرض حياته المعنوية إلى الشلل، ولهذا يُصبح من الصعوبة بمكان أن يحافظ الإنسان على نفسه من دون القيام بالجهاد المادي، ولهذا قال الرسول ﷺ عند رجوعه من إحدى الغزوات "رَجَعْنَا مِنْ الْجِهَادِ الْأَضْعَرِّ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ"، إشارة إلى هذا الموقف العصيب للغاية.

والحديث الشريف يعني: أننا آمنا وشرُفنا بالجهاد والاشتراك في الغزوات، وربما غنمنا بعض الغنائم... وبعد ذلك ربما يسري إلى نفوسنا حبّ الدعة والراحة والارتخاء بل ربما يراود بعضنا الشعورُ بشيءٍ من الإعجاب، فيتسرّب من نفوسنا الأمانة -بطريقٍ شتّى- إلى أرواحنا ويفسدها؛ بمعنى أن مخاطر مهلكة كثيرة تنتظرنا بعد الجهاد المادي، فالنضال الذي سنخوضه بعد ذلك هو أصعب وأكثر جدّية من سابقه.

فالمخاطب بهذا الحديث الشريف -فضلاً عن الصحابة الكرام- هم الذين يأتون من بعدهم، وبالتالي فنحن منهم، ولهذا ينبغي أن نطلّ حذرين جدّاً في استعمال هذا الميزان، فإن كان الإنسان يوجّه حركاته في الجهاد إلى الخارج فقط بعيداً عن مراقبة النفس، فهذا يعني أنه على شفا حفرة من الخطر الجسيم.

كان أرباب عصر السعادة كالأشدّ في ساحة الوغى، فإذا ما أرخى عليهم الليل سدوله تحوّلوا إلى عبّادٍ وزهّادٍ، تنثني أصلابهم بمثاني القرآن، يقضون ليلهم في عبادة وذكر الله تعالى، فيصِلُون كلالَ ليلهم بكمالِ نهارهم.

فإن كان الأمر هكذا فإن اعتبار الجهاد المادّي هو كل شيء، وغضّ الطرف عن الجهاد الأكبر أو هدم أهم ركن في الدين؛ أي الجهاد الأكبر، وتحويله إلى رهبانية ليس إلا خيانة لروح الدين، وما حياة سيد الأنام ﷺ وصحابته رضي الله عنهم بخافية عنا.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ: "مَنْ رَجُلٌ يَكْلُمُنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ؟" فَانْتَدَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَا: نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "فَكُونُوا بِقِمِ الشَّعْبِ"، قَالَ: "وَكُونُوا نَزَلُوا إِلَى شَعْبٍ مِنَ الْوَادِي"، فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى قِمِ الشَّعْبِ، قَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ: أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَكْفِيكَهُ؟ أَوَّلُهُ أَوْ آخِرُهُ؟ قَالَ: أَكْفِنِي أَوَّلَهُ، فَاضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَامَ، وَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي، وَآتَى الرَّجُلَ، فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَيْبَةُ الْقَوْمِ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، وَتَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، وَتَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ عَادَ لَهُ بِثَالِثٍ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ، ثُمَّ أَهَبَ صَاحِبَهُ، فَقَالَ: اجْلِسْ فَقَدْ أُوتِيتَ، فَوَثَبَ، فَلَمَّا رَأَاهُمَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنَّ قَدْ نَذَرُوا بِهِ فَهَرَبَ، فَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بِالْأَنْصَارِيِّ مِنَ الدِّمَاءِ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، أَلَا أَهْبَيْتَنِي قَالَ: كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَأُهَا، فَلَمْ أَحِبَّ أَنْ أَقْطِعَهَا حَتَّى أَنْفِذَهَا، فَلَمَّا تَابَعَ الرَّمْيَ رَكَعْتُ فَأَرَيْتُكَ، وَإِنَّمِ اللَّهُ لَوْلَا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِهِ، لَقَطَعْتُ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطِعَهَا، أَوْ أَنْفِذَهَا" (٥٢).

بمعنى أن الاطمئنان وسكينة القلب قد غمراه، وكأن القرآن يتنزل عليه وهو يتلوه في الصلاة، وكأن جبريل عليه السلام ينفثه في روعه، فيتشهي بنشوة الوجد حتى لا يجد أي ألم للسهم الذي انغرّز في جسده.

وهذا هو موقف من جمع بين الجهادين، الأصغر والأكبر، بل هذا هو الوجه الحقيقي للجهاد.

ولقد اتحد في شخص النبي ﷺ أعلى وأرقى نقطة من كلا الجهادين فكان ﷺ أنموذجاً ومثالاً للشجاعة فيروي سيدنا علي الكرار ﷺ وهو البطل الشجاع باعتراف الجميع ويقول: "كُنَّا إِذَا أَحْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَذْنَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْهُ" (٥٣).

ومثالاً في غزوة حنين "... طَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكُضُ بَعْلَتَهُ قَبْلَ الْكُفَّارِ قَالَ عَبَّاسٌ وَأَنَا أَخَذْ بِلِجَامِ بَغْلَةٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْفُفْهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ... وَأَبُو سَفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَقُودُ بِهِ فَنَزَلَ فَاسْتَنْصَرَ وَقَالَ:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ * أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

قال الراوي: "كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا أَحْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لِلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ" (٥٤).

فهذا المثال الرائع ﷺ والأنموذج الكامل للشجاعة والإقدام والبطولة في ميدان المعركة، أما في ميدان العبادة فكان في منتهى العبودية حتى يُسمع لصدرة أزيز كأزيز المِرْجَلِ من البكاء، ويدفع من حوله إلى رقة القلب كلما سكب الدموع، وكان يصوم أتماً حتى يُقال إنه لا يُفطر، بل كان يصوم حتى صوم الوصال، وكان يقيم الليل كله أحياناً حتى تتورم قدماءه، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمْ تَضْنَعْ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: "أَفَلَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا!" (٥٥).

(٥٣) مسند الإمام أحمد، ٤٥٣/٢.

(٥٤) صحيح مسلم، الجهاد والسير، ٧٦-٧٩.

(٥٥) صحيح البخاري، تفسير القرآن، سورة الفتح، ٢.

تأملوا إنساناً يعتكف متخفياً في غار "ثور" من دون مبالاة لحيات أو هوام، وعندما يبلغ المشركون باب الغار يجزع سيدنا أبو بكر رضي الله عنه خشية أن يطّلع عليهم أحد، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم في منتهى الاطمئنان والسكينة: "مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا!"^(٥٦).

فهذا الإنسان الذي لا يعرف معنى الخوف أبداً عندما يسمع القرآن يرقّ قلبه حتى تنهمر الدموع منه وتكاد تنقطع أنفاسه، فعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "اقْرَأْ عَلَيَّ"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْرَأْ عَلَيَّ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ، قَالَ: "نَعَمْ"، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (سورة النساء: ٤١/٤)، قَالَ: "حَسْبُكَ الْآنَ"، فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ^(٥٧).

إنه إنسان القلب الحي والضمير اليقظ، وهو السابق الأول دوماً في الجهاد المادّي والمعنوي، فحينما يحثّ أمته على الاستغفار يكون هو في المقدمة ويقول: "وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً"^(٥٨).

إن الذي يظفر في الجهاد الأكبر فلا بدّ وأن يفوز بالجهاد الأصغر غالباً، غير أنه لم يُر قطُّ أن من خسر الجهاد الأكبر قد فاز بالجهاد الأصغر، وحتى وإن استطاع أمثال هؤلاء الوصول بالخدمة والعمل إلى مرحلة معينة فمن المتعذّر عليهم الوصول إلى النتيجة المنشودة.

عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: لما كان ليلة من الليالي قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعْبُدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي" (يا له من إنسان غاية في اللطف لدرجة

(٥٦) صحيح البخاري، المناقب، ٣٠؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ١.

(٥٧) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ٣٣؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٤٧-٢٤٨.

(٥٨) صحيح البخاري، الدعوات، ٣.

أنه يستأذن زوجته في قيامه للتعبد لربه! ولا غرور ولا عجب فالأصالة تجري في عروقه ﷺ. قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ قُرْبَكَ، وَأَحِبُّ مَا سَرَّكَ، فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرُهُ، ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ لِحْيَتِهِ، ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَاهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: "أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَبِلَّ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٠/٣)" (٥٩).

وأحياناً كان رسول الله ﷺ يقوم إلى عبادته دون أن يوقظ زوجته أو يستأذنها؛ فعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفَرَّاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعْتُ يَدَيَّ عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ" (٦٠).

ها هو رسول الله ﷺ، وها هو جهاده الأكبر، وذلك هو عمقه المعنوي، فإن كان ﷺ هكذا أيمن أن يكون صحابته غير ذلك؟ فلا بد من التشبه به حتى يتسنى الفوز بالقرب منه، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم على وعي تام بهذا الأمر، حتى كان منهم من أمثال "ثوبان" رضي الله عنه الذي خطر بباله يوماً مفارقة الرسول ﷺ فانقطعت شهيته واستولى عليه الهم والغم.

وروي أن "ثوبان" مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه، يُعرف الحزن في وجهه،

(٥٩) صحيح ابن حبان، ٣٨٧/٢.

(٦٠) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٢.

فقال له رسول الله ﷺ: "مَا غَيَّرَ لَوْنَكَ؟" فقال: يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أنني إذا لم أرك أستوحش وحشة شديدة حتى ألقاك، وإنني لأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإنني ذكرت موتي وموتك، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفِعْتَ مع النبيين، وإن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (سورة النساء: ٦٩/٤) فداها به فقرأها عليه^(٦١).

وهذا مقتضى قول النبي ﷺ: "المرء مع من أحب"^(٦٢).

إن محبة المرء تكون بالتشبه به، وجعل حياته أنموذجاً يُحتذى به ولا يُحاذ عنه، والصحابة الكرام كانوا حقاً على هذا الشعور تماماً.

كان سيدنا عمر الفاروق ؓ يتلظى شوقاً طوال حياته للفوز بمصاهرة رسول الله ﷺ، وقد أراد أن يحقق هذا الأمر عن طريق الزواج بالسيدة فاطمة ؓ، لكنها كانت من نصيب سيدنا علي كرم الله وجهه، فلما لم يجد عمر ؓ بداً تزوج من أم كلثوم ابنة سيدنا علي ؓ، ولو أراد لتزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطي ولن يجد في هذا عناءً أو مشقة، بل إن ذلك في متناول يده، غير أن همه لم يكن مجرد الزواج بل توثيق الصلة برسول الله ﷺ، ولذا كان يسعى حثيثاً خلف حسب ونسب ربما يكون في صالحه يوم لا ينفع مال ولا بنون.

حقاً لقد كانت علاقته المعنوية برسول الله ﷺ وطيدة للغاية وفي أعلى درجاتها، ولقد رُئي النبي ﷺ وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله

(٦١) أبو الليث السمرقندي، بحر العلوم، ٣١٦/١؛ الواحدي: أسباب النزول، ١٦٠/١.

(٦٢) صحيح البخاري، الأدب، ٩٦؛ صحيح مسلم، البر، ١٦٥.

وهو يقول: "هَكَذَا نَكُونُ ثُمَّ هَكَذَا نَمُوتُ ثُمَّ هَكَذَا نَبْعَثُ ثُمَّ هَكَذَا نَدْخُلُ الْجَنَّةَ" (٦٣).

غير أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يريد أن يوثق صلته المادية أيضاً برسول الله ﷺ، ومن هذا المنطلق زوّج ابنته السيدة حفصة رضي الله عنها بالنبي ﷺ، وتزوج هو بحفيدة سيدنا رسول الله ﷺ؛ أم كلثوم ابنة علي وفاطمة رضي الله عنهما، ولقد سعد سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه أيما سعادة بهذه الصلة والمصاهرة.

ذات يوم قالت له ابنته أمنا حفصة رضي الله عنها: "أَلَا تَلْبَسُ ثَوْبًا أَلَيْسَ مِنْ ثَوْبِكَ، وَتَأْكُلُ مِنْ طَعَامٍ أَطْيَبَ مِنْ طَعَامِكَ هَذَا، وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْأَمْرَ، وَأَوْسَعَ إِلَيْكَ الرِّزْقَ؟ فَقَالَ: سَأُخَاصِمُكَ إِلَى نَفْسِكَ، فَذَكَرَ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَا كَانَ يَلْقَى مِنْ شِدَّةِ الْغَيْشِ، فَلَمْ يَزَلْ يَذْكُرُ حَتَّى بَكَتْ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ قُلْتُ لِأَشَارِكَنَّهْمَا فِي مِثْلِ عَيْشِهِمَا الشَّدِيدِ لَعَلِّي أُدْرِكُ مَعَهُمَا عَيْشَهُمَا الرَّخِيَّ" (٦٤).

ونحن نُطَلِّقُ على هذا الجهاد الأكبر أو الجهاد المعنوي، وهذا هو سبيل رسول الله ﷺ والصحاب الكرام رضي الله عنهم، إنهم في حضور دائم مع الله واتصال مستمر وثيق معه، كانت عباداتهم وأذكارهم من الكثرة والعمق بحيث من يشاهدهم يحسب أن ليس لهم شغل يشغلهم غير العبادة والذكر، هذا مع كمال إيفاء أمورهم الدنيوية والمعيشية حقهما من الاهتمام.

نعم، إنهم يمثلون خلاصة الإخلاص ولبّه، إذ ما كانوا يعملون عملاً إلا وفق مرضاة الله سبحانه، فكان كلّ عملهم في مراقبة عميقة دائمة لله، فعن عُمَرَ الْمَخْزُومِيِّ قَالَ: "نَادَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه بِالصَّلَاةِ جَامِعَةً"،

(٦٣) ابن عساکر: تاریخ دمشق، ٢٢/٢٠٥.

(٦٤) البيهقي: شعب الإيمان، ١٣/١٦٨؛ الحاكم: المستدرک، ١/٢١١.

فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ وَكَثُرُوا؛ صَعِدَ الْمِنْبَرُ؛ فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَرعى عَلَى خَالَاتٍ لِي مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، فَيَقْبِضُنَ لِي الْقَبْضَةَ مِنَ التَّمْرِ أَوْ الزَّيْبِ، فَأَظْلُ يَوْمِي وَأَيُّ يَوْمٍ، ثُمَّ نَزَلَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ قَتَمْتَ نَفْسَكَ! -يَعْنِي: عَثَبَهَا- فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ عَوْفٍ! إِنِّي خَلَوْتُ؛ فَحَدَّثْتَنِي نَفْسِي؛ قَالَتْ: أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَمَنْ ذَا أَفْضَلُ مِنْكَ؟ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَهَا نَفْسَهَا" (٦٥).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أَنَّ أَبَاهُ حَمَلَ قَرَبَةً عَلَى عَاتِقِهِ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: إِنْ نَفْسِي أَعْيَتَنِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَذْلَهَا (٦٦). وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رضي الله عنه إِذَا كَتَبَ كِتَابًا فَاسْتَحْسَنَ لَفْظَهُ مَزَّقَ الْكِتَابَ وَغَيَّرَهُ (٦٧) حَتَّى لَا يَقَعَ فِي فَخِّ الشُّرُورِ النَّفْسِيَةِ وَأَمْرَاضِهَا.

إِنْ جِهَادُ هَؤُلَاءِ الْأَطْهَارِ الَّذِينَ بَلَّغُوا الْكَمَالَ الرُّوحِي وَتَكَامَلُوا بِهِ لَنْ يَبْقَى بِلَا ثَمَرٍ، لِأَنَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلَى هَذَا فَالَّذِينَ يَتَبَاهَوْنَ وَيَتَفَاخِرُونَ بِأَعْمَالِهِمْ بِاسْمِ الْجِهَادِ هُنَا وَهَنًا، وَلَمْ يَصْلُحُوا شُؤْنَهُمُ الدَّاخِلِيَّةَ وَلَمْ يَنْجُوا مِنَ الرِّبَا وَالْعُجْبِ وَالْغُرُورِ وَالْكَبَرِ؛ أَعْمَالُهُمْ تَخْرِيبًا أَكْثَرَ مِنْ كَوْنِهَا تَعْمِيرًا، بَلْ حَتَّى لَوْ بَلَّغُوا مَبْلَغًا مَعِينًا فِي مَرَحَلَةٍ مَا؛ فَلَنْ يَبْلُغُوا الْغَايَةَ وَالنَّتِيجَةَ قَطْعًا.

وَهُنَاكَ آيَاتٌ وَأَحَادِيثٌ تَجْمَعُ بَيْنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ وَالْجِهَادِ الْأَكْبَرِ، وَمِنْ ذَلِكَ سُورَةُ النَّصْرِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ (سورة النصر: ١/١١٠-٣).

(٦٥) الدينوري: المجالسة وجواهر العلم، ٤/٤٦٦؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٤٤/٣١٥.

(٦٦) محب الدين الطبري: الرياض النضرة، ٢/٣٨٠.

(٦٧) القشيري: الرسالة القشيرية، ص ٢٤٧.

فهذه السورة تُبَشِّرُ بمجيء نصر الله وفتحته حينما يدخل الناس أفواجا في دين الله، وهذا ما حصل بالفعل، فحينما أُزِيلَت العوائق أمام الجهاد الأصغر من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ الحق، ودخل الناس في الإسلام أفواجا جاء الأمر الإلهي: "فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ"؛ لأن جميع هذه الأمور ما هي إلا إحساناً ونعمة إلهية بحتة، إذ هو الذي خلقها كلها، فتأملوا هذا وسبحوا الله وقُدِّسوه تعالى.

فعلى الإنسان الذي انتصر على الأعداء في الخارج، أن ينتصر على عدوه في الداخل أيضاً وهو نفسه التي بين جنبيه، ليتم جهاده ويكتمل.

وفي ضوء هذا تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: كان الرسول ﷺ بعد نزول هذه السورة يردّد باستمرار: "سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ" ^(٦٨).

وفي حديث آخر يجمع الرسول ﷺ هذين الجهادين معاً فيقول: "عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" ^(٦٩).

إن جهاد من يسهر على الحدود والثغور ويرابط في ميدان الحرب، وفي أخطر المواقع جهاداً مادّي، فالذي يؤدي هذا الجهاد لا تمس النار عينه، وعين أخرى تحقق الجهاد المعنوي الأكبر، وهي العين التي تبكي من خشية الله، فهاتان العينان سواء في نيل البشارة النبوية.

نعم، يستحيل لدى الرحمة الإلهية ووعد الله القاطع أن تمس النار هاتين العينين كاستحالة عودة اللبن إلى الضرع! قال ﷺ: "لَا يُلْجُ النَّارَ رَجُلٌ

(٦٨) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٨.

(٦٩) سنن الترمذي، فضائل الجهاد، ١٢.

بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَغُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ" (٧٠)، وَإِنَّ وَاقِعَ مَنْ يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشْعَثُ أَغْبَرَ لَا يَخْتَلِفُ عَنْ هَذَا، فَقَدْ بَشَّرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ أَنَّ النَّارَ لَا تَمَسُّ مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَنْ عُبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ قَالَ: أَدْرَكَنِي أَبُو عَبْسٍ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَى الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ" (٧١).

نعم، لا تَمَسُّ النار تلك الأعين التي تذرف الدموع ساخنة من خشية الله، وتحرس وتراقب مواقع دخول العدو مرابطة على ثغور الأمة، فالذي ينذر نفسه لهذا النوع من الرباط، ويجابه المهالك التي تعصف بالبلاد، ويتصدى لها بإنشاء مؤسسات يتربى فيها أبناء أمته بمستوى يليق بالإنسان، ويتجافى عن حظوظ نفسه وأذواقها لأجل الآخرين، ويهتم براحة الآخرين وعيشهم الهنيء؛ فهؤلاء لا تَمَسُّ أعينهم النار أبداً.

وعلى هذا فالذين يرون الجهاد جدالاً ونقاشاً هنا وهناك؛ إن لم يراقبوا أعمالهم ويقوموها بموازين الجهاد الذي ينادون به؛ فإنهم لا يعملون إلا لقتل الوقت وخداع أنفسهم، فالذين لم يحسموا الأمر مع نفوسهم، ولم يلجموها بالمراقبة الدائمة، ولم يُمرِّغوا أنف الرياء، ولم يسحقوا نزع الفخر والخيلاء تحت أقدامهم، ولم يقتلعوا من أرواحهم شوكة الكبر والرياء؛ فأعمالهم لا تُجدي فتيةً سوى إحداث القلاقل والاضطرابات.

ومن جهة أخرى فالذين ينسحبون من الميدان، ويقبعون في زواياهم، وينظرون إلى الجهاد نظرةً يتيمةً من حيثيته المعنوية قائلين: لا يصح الانشغال بالغير قبل جهاد النفس... فهؤلاء الذين يزرون إحراز درجات

(٧٠) سنن الترمذي، فضائل الجهاد، ٨؛ سنن النسائي، الجهاد، ٨.

(٧١) صحيح البخاري، الجمعة، ١٦؛ سنن الترمذي، فضائل الجهاد، ٧؛ سنن النسائي، الجهاد، ٩.

معنوية لأنفسهم ولا يعملون على إزاحة العوائق بين الناس ورب الناس، ولا يشاركون في عمليات إيصال العباد إلى ذواتهم، هم بلا شك على خطأ واضح، لأنهم يخلطون الإسلام بالروحانية، إن الفكر المهيمن على أولئك القائلين بإصلاح أنفسهم قبل دعوة الآخرين مكتفين بالجانب المعنوي من الجهاد فحسب هو: أن كل إنسان يحاسب بمفرده "فكل شاة برجلها ستناط" كما هو المثل العامي المشهور، وإن من لم يصلح نفسه سيعجز على إصلاح غيره؛ لذا على المرء أن يلتفت إلى إصلاح نفسه أولاً.

فنقول لمن استهواه هذا الفكر: اعلم أن الإنسان حينما يظن أنه أنقذ نفسه فقد وقع من فوره في أخطر دوامة، فمن يطبق أن يدعي خلاص نفسه والقرآن الكريم يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (سورة الحجر: ٩٩/١٥). نعم، إن الإنسان مكلف بالعبادة حتى الرمح الأخير، فلا يستطيع أن يُحجِم عن أي عمل كان متعلِّقاً بالعبودية لله، حتى يُرفع الستار ويدعى إلى العالم الآخر.

فكيف يمكن لمن تُناط به دائماً مهمة التكليف هكذا أن يقول إنه أنقذ نفسه؟

إذاً فإن جهاد الإنسان مع نفسه، وسعيه لتطهيرها وتزكيتها من الأخلاق الرذيلة، ومحاولته إصلاحها وتقويمها؛ سيدوم ما دام فيه قلبٌ ينبض.

نحن إذاً مضطرون إلى العيش الدائم بين الخوف والرجاء، فكما لا يخطر ببال المؤمن الاطمئنان إلى النتيجة فليس من صفاته القنوط أيضاً، إلا أن الخوف لا بد أن يكون أرجح في ميزانه في الدنيا، تأملوا عمرَ الفاروق رضي الله عنه وهو يجود بأنفاسه الأخيرة؛ لَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه بَكَى،

فَقَالَ: "أَبَشِّرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ، قَالَ: تَشْهَدُ لِي بِذَلِكَ؟" قَالَ الراوي (وهو ابن عمر رضي الله عنه): فَكَأَنَّهُ كَعَّ، فَضْرَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه مَنْكِبَهُ، فَقَالَ: "أَجَلْ، فَاشْهَدْ، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: كَيْفَ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ إِسْلَامُكَ عِزًّا، وَوَلَايَتُكَ عَدْلًا، وَمِيتَتُكَ شَهَادَةً، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا تَعْزُونِي مِنْ رَبِّي وَدِينِي، تَكَلَّمْتُ عُمَرَ أُمُّهُ إِنَّ لَمْ يَرْحَمْهُ رَبُّهُ" (٧٢).

وعلى ذلك فمن الخطأ الجسيم أن نفسر مسألة تتطلب جهداً وسعيًا متزامناً مع العمر كله على أنها عائقٌ ومانعٌ من الجهاد، وهذا أمر لا بد من الوقوف عنده كثيراً.

وحمادى القول وخلاصته: إننا إذا تناولنا الجهاد بنوعيه الأكبر والأصغر كلٌّ على حدة لَتَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ أَحَدَهُمَا يَنْجُمُ عَنْهُ الثَّرَثَةُ وَالْجَدَلِيَّةُ وَالْفَوْضَى، وَالْآخَرُ يَنْشَأُ عَنْ الذَّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ وَالْخُمُولَ وَالْكَسَلَ، أَمَا الْجِهَادُ الْحَقِيقِيُّ فَهُوَ مَا يَتَأْتَى بِتَوْحِيدِ كِلَيْهِمَا مَعًا؛ وَهَذَا هُوَ مَفْهُومُ الْجِهَادِ عِنْدَ الرَّسُولِ ﷺ وَالصَّحَابَةِ رضي الله عنهم.

لم يفهم أحدٌ من المرشدين الحقيقيين العظماء الذين ربّاهم الإسلام الجهادَ على وجهٍ واحدٍ من هذين الوجهين، فلم يتخلفوا عن نشرِ الحقِّ والصدع به قطّ حتى لو كانوا وراء قضبان السجون، بل أناروا ليلهم كَنَهَارِهِمْ، وَلَمْ يَرْخُوا عَنَانَ الْعِلَاقَةِ الْقَوِيَّةِ مَعَ رَبِّهِمْ، وَلَمْ يَهْمَلُوا قِطْعًا دَائِرَةَ الْقَلْبِ مَهْمَا بَلَّغَتْ سَعَةَ خِدْمَاتِهِمْ، بَلْ أَصْبَحَ كُلُّ مَا اسْتَشْعَرُوهُ فِي هَذَا الْمَجَالِ وَسِيلَةً لظهور ثمرة إيمانية جديدة لديهم، فَعَاشُوا دَوْمًا بِشُعُورِ الْإِحْسَانِ الْإِلَهِيِّ، مُسْتَحْضِرِينَ مِرَاقِبَةَ اللَّهِ لَهُمْ كُلَّ آنٍ، فَفَازُوا بِعَمَلِهِمْ هَذَا بِالقرب منه ﷻ إِلَى أَنْ شَهِدُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ بِصَرِّهِمْ الَّذِي يُبْصِرُونَ بِهِ

ويدهم التي يبطشون بها... فبارك الله فيهم حتى عُدَّ الفرد منهم بألف، ونمت أعمالهم وبوركت مثل حَبَّةِ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ.

إن إنساننا في الوقت الحاضر، إن كان يريد أن يجاهد في سبيل الله حقَّ جهاده وبما يرضيه - وهذا ما يجب عليه - عليه في نفس الوقت الذي ينشر فيه الحقَّ ويُبلِّغ الحقيقة للآخرين أن يراقب نفسه مراقبةً جادَّةً ويحاسب رغباته حساباً عسيراً، وإلاَّ فهناك احتمال قويٌّ بأنه يخادع نفسه، وعند ذلك لا ينتفع بعمله ولا ينتفع به غيره.

على المجاهد أن يكون خالصاً مخلصاً صادقاً، يحمل من الإخلاص ما يجعله يُؤثِّرُ الله على كلِّ ما سواه، وبذلك يكون الجهاد مثمراً وباقياً، فهو بدلاً من أن يملأ عقول الآخرين بالعُتْبِ والسُّمَيْنِ من المعلومات، عليه أن يقرَّ في قلوبهم وعقولهم الإخلاص وحسن النية وروح المحاسبة الداخلية والشعور بأن يكونوا من رجال القلوب.

نعم، الجهاد موازنة بين فتح الداخل والخارج، ففيه بلوغ الكمال ودفع الآخرين إليه، فبلوغ الإنسان ذاته جهاد أكبر ودفعه الآخرين إلى الكمال جهاد أصغر، فإذا ما افترق أحدهما عن الآخر ينتفي معنى الجهاد عملياً، فيتولد من أحدهما الذلُّ والمسكنة ومن الآخر العنف والإرهاب، ونحن الآن ننظر ولادة روحٍ مُحَمَّدِيَّةٍ مجدِّداً، وهذا لا يمكن إلَّا باتباع الرسول ﷺ في هذا الأمر كما في كلِّ أمرٍ.

فما أسعد أولئك الذين يبحثون عن وسائل لإنقاذ غيرهم مثلما يبحثون عنها لإنقاذ أنفسهم! وما أسعد الذين لا ينسون أنفسهم في خضمِّ العمل لإنقاذ غيرهم!

محنة التفريق وفتنة الخلاف الداخلي

سؤال: بأي شيء نُمْتَحَن في الدنيا؟ هل نُمْتَحَنُ بفساد وحدثنا وتفريق كلمتنا؟ وهل امْتَحَنَ الصحابةُ بعضهم ببعض؟

الجواب: يقول الله تعالى في آية كريمة ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ (سورة الأنعام: ٥٣/٦)، إذَا فَإِنَّ النَّاسَ يَمْتَحِنُونَ بعضهم ببعض، ونستطيع درج هذه المسألة في عدّة نقاط:

الأولى: يُبعث من بين الناس نبيّ، ويكون إرسال هذا النبيّ امتحانًا للناس من حوله، وحدث هذا عند بعثة رسولنا ﷺ؛ لأن بعض الناس قالوا آنذاك: أنى يُبعثُ يَتِيمٌ أبى طالب نبيًّا وهو الفقير الذي لا يملك أتباعًا أقوياء، مع وجود مَنْ هو أولى منه مثل مسعود بن عروة في الطائف، أو الوليد بن المغيرة في مكة؟

ومع أن قريشًا قبيلة عريقة، لكنها ليست بأقوى القبائل؛ والنبي يجب أن يُبعث في أقوى القبائل لكي تستطيع قبيلته الدفاع عنه وحمايته.

كما قالوا: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان: ٧/٢٥).

ولا يزال الامتحان قائمًا لبعض الناس حتى في وقتنا الحالي، إذ يقولون: كيف يكون مَنْ تزوج تسع زوجات نبيًّا؟

تتفق كل هذه الأقوال وأشباهها في النقطة نفسها؛ وهي أن الناس يمتحنون بعضهم ببعض، والامتحان هو غاية مجيء الناس إلى الدنيا، إذ تتم غربلتهم حتى يتميز أصحاب الأرواح الطيبة عن أصحاب الأرواح الخبيثة، ولكي يتميز الماس عن الفحم، ويظهر بوضوح من يحمل روحاً شيطانياً ومن يحمل روحاً ملائكياً، وهكذا تتحقق الغاية من خلق الدنيا.

ولو لم يكن هناك مثل هذا الامتحان لما تميزت روح أبي بكر رضي الله عنه الشبيهة بالماس عن روح أبي جهل السوداء سواد الفحم؛ أي لولا هذا الامتحان لما لمعت الحقيقة الحميدة ولما ظهرت ولا انجلت ولا انقلبت إلى شمس تبهر الأعين.

عندما تناول الرسول ﷺ الناس شبَّههم بالمعادن "خَيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا فَقَّهُوا"^(٧٣)، فالإسلام يتناول الناس ويذيبهم ويشكلهم مدةً معينةً في بوتقات معينة، ثم يوحدهم مع أرواحهم ليصلوا إلى ذواتهم، أي يُخرج الخاصية الكبرى التي تكمن في ماهيتهم من القوة إلى الفعل، وهذه الخاصية هي كون الإنسان مرآةً جامعةً لتجلي أسماء الله.

ولكن المعادن تحتفظ على الدوام بخصائصها، فالذهب يبقى ذهباً والفضة تبقى فضةً والنحاس يبقى نحاساً، والفرق هو في تخلص هذه المعادن من شوائبها لتكون معادن صافيةً نقية، والمحن والابتلاءات هي عملية تخلص معدن الإنسان وتصفيته مما علق به من الأشياء الغريبة عنه، والوصول بكل إنسانٍ إلى أعلى قمة في استعداداته وقابلياته.

الثانية: إن الشيطان يقوم بتزيين بعض الشرور فيغوي بها أناساً لا تتوقع غوايتهم، وقد يوجد بين هؤلاء الذين يصبحون آله في يد الشيطان أشخاص

ذوو بنية معنوية عالية المستوى، إن تزيين السوء وتقييح الخير قد يبدو عملاً بسيطاً ولكنه عملٌ كسبيٌّ وتخريبيٌّ كبيرٌ بحيث يمكن نسبته إلى الشيطان؛ ولهذا أطلق عليه صاحبُ الشريعة اسمَ «المزِين»؛ أي الذي يزِين السوء.

كما نُمْتَحِن من قبل أهواء النفس والشيطان بإثارة شعور المنافسة في الأرواح، حتى إن الشعور بالغبطة الذي يبدو شعوراً بريئاً لأول وهلةٍ ويسوق الناس للتنافس في خدمة الدعوة قد يصبح ابتلاءً إن انقلب بعد ذلك إلى شعورٍ بالمنافسة الصِّرفَة.

فمثلاً إن أصبحت جهود شخصٍ ما وسيلةً لهداية الناس أكثر من شخص آخر، فتمتَخَص عن هذا أن حَسَدَ الأخيرِ الأوَّل أو غبطه؛ فعليه أن يدرك بأنه في امتحانٍ كبير.

ومع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الشُّورَى: ٥٢/٤٢)، فإنه يقول في آيةٍ أخرى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة القصص: ٥٦/٢٨)، إذاً فالله تعالى هو الذي يهدي مَنْ يَشَاء، إن المرشد يدلُّ على السبيل القويم ويجعل منه جادةً كبيرةً عند اللزوم، ويضيء هذا السبيلَ بمصابيحٍ قويَّة وكشَّافات ضوئية كبيرة لكي يُقْبِلَ الناس على هذا الطريق القويم ويبلَّغوا الحقَّ ولا ينحرفوا عنه، ولكن -في النهاية- الله هو الذي يهب الإيمان للقلوب، وهو "المعنى الحاصل بالمصدر" من الهداية، أما "المعنى المصدري" فهو ما وُكِّل لإرادتنا، ولا يوجد له "وجود خارجي"، أي لا يمكن أن نقول إنه "موجود" فيما يتعلق بالقدرة والإرادة، بل له "وجود علمي نسبي".

ومن جملة هذه الامتحانات أن الله يهب لأحدهم فصاحة وقوة بيان بحيث يستطيع هذا الشخص إيضاح حقائق القرآن بأفضل أسلوب

وبأجمل بيان، فيحسده بعضهم، ويتحسر قائلاً "لماذا لم أوهب أنا مثل هذه المهارة؟" فهذا أيضاً امتحانٌ من جملة الامتحانات وعاقبته وخيمة.

صحيح أن الله تعالى اصطفى جميع رسله، ولكنه أيضاً فضّل بعض هؤلاء الرسل على بعضهم ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (سورة البقرة: ٢/٢٥٣)، فهذه الآية تثبت ما ذكرناه، فالله تعالى خصّ بعض رسله بفضائل معينة ورفعهم إلى درجات لا يبلغها ملائكة وأنبياء آخرون، إلا أن فضيلة النبوة في معناها العام فضيلة لا تدانيها أي فضيلة أخرى، وعدم وجود بعض الفضائل الخاصة عند بعض الأنبياء دون الآخرين لا تجرح نبوتهم أبداً.

من الممكن الإتيان بأمثلة أخرى كثيرة حول سؤال لماذا؟ الذي يحمل معنى الشكوى والحسد: لماذا لا أستطيع أن أقدم خدمة أكثر للدعوة؟ لماذا لا أستطيع القيام بإعطاء مَعُونَاتٍ مَادِّيَّةٍ أكثر؟ لماذا لا يُصْغِي إِلَيَّ خلق أكثر؟... وغير ذلك الآلاف من الأسئلة من هذا القبيل، والحقيقة أن مثل هذه الأسئلة ليست إلا ضربات موجهة إلى صدرٍ وحدة الصّف، والله تعالى يدعو المؤمنين منذ البداية إلى الابتعاد عن جميع الطرق المؤدية إلى النزاع، والآية الكريمة ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (سورة الأنفال: ٨/٤٦)، تتناول هذا الموضوع بالتفصيل.

إنّ هذه الآية تخاطب المؤمنين فتوصيهم قائلة: لا تدخلوا في أي نزاع ماديّ أو معنويّ، بل حاولوا الاتحاد حول النقاط المشتركة التي تسمونها فيما بينكم "خيط الوصال"، ولا تقعوا في نزاع حتى لو كان حول أمرٍ إيجابي، ولا تدعوا الحسد ولا التنافس ولا الغبطة أن تقودكم إلى النزاع، وإلا فشلتكم وذهبت قوتكم، إنّ ثمرة العمل الفردي تبقى في مستوى الفرد،

أما الأعمال المنفذة في ظلّ وحدة الجماعة فتكافأ برحمة الله تعالى العامة، وهكذا يكتسب كل فرد ثواب جماعة كاملة.

أجل، إن كل عبادة فردية تثمر نتيجة فردية، ولكن في مقابل ذلك فإن العبادة الجماعية والشراكة في رفع الأيدي إلى السماء بالدعاء، ونبض القلوب معاً، والمعاونة الجماعية وطلب الشيء نفسه جماعياً؛ يؤدي إلى تنزّل الرحمة الإلهية الشاملة على الجماعة بأسرها، وهذا ما لا يمكن الوصول إليه فردياً، ففي العمل الفردي كل ما يستطيعه الفرد هو أن يصبح ربّاً لأسرته، ولكن إن نبضت القلوب جماعةً واستقامت صفوف الجماعة وتساندت اكتسبت هذه القوة بُعداً عظيماً على مستوى الفرد والمجتمع، ويشعر كل فرد ضمن مئات الآلاف من الأفراد الموجودين تحت هذه القبة المتماسكة للجماعة بأنه في حمايتها ورعايتها ويمثل قوة الجماعة المنسوب إليها التي تحميه من القوى الخارجية، فإن انفصل الفرد عن هذه الوحدة وعن هذا الصف وحاول تشكيل ملجأٍ فرديٍّ خاص به، زالت تلك القبة الإلهية العريضة عرض القبة السماوية وتحولت إلى مظلة صغيرة يرفعها الفرد فوق رأسه، ثم تظهر وتتجلى حقيقة الحديث "كَمَا تَكُونُوا كَذَلِكَ يُؤْمَرُ عَلَيْكُمْ"^(٧٤)، أي سرعان ما تتجرّع الأمة نتائج هذه الحقيقة المؤلمة.

فإن كان المجتمع مجتمعاً صالحاً وعلاقته قويةً مع الخالق ﷻ عند ذلك سيحترمنّا الآخرون وتنسمون حينذاك الألفاظ اللدنية كما قال سيدنا رسول الله ﷺ لصديقه أبي بكر رضي الله عنه في الغار؛ ومن ثم فإن الله سيكون الثالث إن كنا اثنين والرابع إن كنا ثلاثة، والخامس إن كنا أربعة،

والسادس إن كنا خمسة، والسابع إن كنا ستة... إلخ؛ لأن الله تعالى وعد بنصر أوليائه وحمايتهم.

ولكن إن تصرفنا بشكلٍ منفرد؛ أي حتى لو كنا اثنين ولم نتعاون ولم نتساند كما يجب، فإن الله تعالى سيجرمنا من البركة التي يُنزلها على الشخصية المعنوية للجماعة أي الشخصية المعنوية الحاصلة من ترابط أفراد المجتمع، أي لن يكون الثالث لنا في هذه الحالة ولن يساعدنا، وهذا يعني أننا نترقى بمعيتة، أي إن الفرد الأول والثاني والثالث... إلخ، يجب أن يكونوا أفراداً أصحاء ويشكلوا مجتمعاً صحيحاً لكي ينصر الله تعالى مثل هذا المجتمع ويأخذه تحت حمايته الخاصة وتحت عنايته، فيتخلص الفرد من عبء وقاية نفسه بمظلتها الخاصة؛ لأنه يدخل ضمن حماية وأمن سماوي.

أجل، إن التعايش في جماعة مع الناس عاملٌ فعّالٌ ووسيلةٌ كبيرةٌ للحصول على التوفيق الإلهي، فلو قضى إنسانٌ حياته منعزلاً في مكانٍ ما، أو على قمّة جبلٍ ما، وقضى وقته في الصلاة والصيام، وأنفق كلّ ما في يده على المساكين، وأدى الحجّ وذرف الدموع على الحجر الأسود، وصلى صلواته في مكة أو في الروضة المطهرة التي أجر الصلاة فيهما يحسب أضعافاً مضاعفة؛ فسيظلّ الأجر والثواب الذي سيناله من الله تعالى في المستوى الفردي.

ولكن ما إن يضع يده مع يد الجماعة ويوسّع قلبه على قدرِ الأمة والإنسانية حتى تنزل الرحمة الإلهية بقدر هذه السّعة، والقرآن الكريم يقول وهو يتحدث عن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (سورة النحل: ١٦/١٢٠)، أي إنه نظر إلى إبراهيم عليه السلام وكأنه أمة كاملة تصويراً لهِمّته العالية.

فكم يكون لطف الله تعالى وعونه كبيراً لمجتمع لا يحتوي سوى ذوي الهمم العالية، ومع أن همم المؤمنين تكون عالية إلا أن التوفيق غالباً ما يُجانب الناس عند امتحان بعضهم ببعض؛ إذ نرى أن حسابات شخصية صغيرة وبسيطة تفسد النظام العام، بل وتُرجح على أسباب الوحدة والاتفاق وجمع الكلمة الذي يوازي بحُرْمَتِهِ حُرْمَةَ الكعبة المشرفة، وهذا الأمر يعوق ويحول دون تنزّل العناية الإلهية التي يحتمل مجيئها في كل آن.

كان القدماء يقولون "بقدر الكد تُكتسب المعالي"، ومع أن هذا ليس بحديثٍ إلا أنه مثل جوامع الكلم؛ أي إنّ جميع النجاحات -المادية منها والمعنوية- تكون متناسبةً مع المشقات ومع الجهود المبذولة في سبيلها. أجل، فمن يدري مقدار الألم والمعاناة التي تتحملها البذرة تحت التربة حتى إبراز رأسها كنبته فوق التراب، إذ تنشق وتحمل آلام اختراق التربة وتستعدّ لاستقبال أشعة الشمس وتتهيأ لها، فكلّ هذه الجهود والآلام هي آلام الولادة والنضال في سبيل الوجود والانبعاث، لذا فهي مهمة جداً.

كلّما انهمرت علينا نعم الله تعالى وأفضاله زاد ثِقَلُ مهمّتنا واشتدّت الامتحانات، وعلينا أن ندرك تمامًا أن هذه المرتبة العالية التي خصّنا بها الله تعالى بكرمه لا تعود لفضيلة أو قابلية شخصية فينا أبداً، وإنما يجب أن ننظر إليها كلُّطْفٍ إلهيٍّ ونقيمتها على ذلك، إن وصور الجمال والخير تمرّ بنا دائماً، وعندما تمرّ تقوم بطَرْقِ أبوابنا؛ لأننا في حاجةٍ إليها أكثر من الآخرين ولا نستطيع أن نكون مظهرًا لهذا الجمال بأشخاصنا، وكلّ هذه الجماليات تنعكس علينا كانعكاس أشعة الشمس على قطرات المياه.

وعلينا ألا ننسى أن هذا اللطف والكرم الإلهي الذي ينهمر من فوق رؤوسنا وينفذ إلى أعماق كياننا إنما يأتي باسم الجماعة، إذ لا يستطيع أحد أن يدّعي أنه صاحب الفضل في هذا.

الثالثة: حب المال والمنفعة المادية من صور الامتحان في حياة الجماعة، والنزاعات والخصومات الموجودة بين السياسيين تنبع من هذه الناحية ومن هذه الأفكار السلبية والمخرّبة التي تستند إلى النزاع حول المنافع المادية؛ ذلك لأن هناك أعيناً كثيرة ترنو إلى مناصب معينة، وهناك أصحاب أهواء وشهوات لا يعرفون الشعب يلهثون وراء منافعهم ومصالحهم الشخصية؛ الأمر الذي يؤدي إلى أن تنقلب الوحدة إلى اختلاف، والاتحاد والتعاون إلى تفرقة وخصام، بينما يجب أن تؤدي جميع الأعمال وجميع التضحيات لوجه الله تعالى دون انتظار جزاء أو شكور من أحد، ولو تم هذا لاجتاز الكثيرون امتحان المنافع المادية المؤدية إلى الشقاق والخصام.

لقد أجبنا بهذا الجواب لأن السؤال كان يدور حول الامتحان المَنُوط بالوحدة ورض الصفوف؛ لأنه لا يمكن تحديد صور وأشكال الامتحانات التي يتعرّض لها الإنسان، ولا يمكن تعدادها هنا واحدة واحدة.

ويسأل السائل عما إذا تعرّض الصحابة الكرام إلى امتحان بعضهم ببعض، لذا فلنقف هنا قليلاً ونقول:

ما كان من الممكن إعفاء الصحابة من مثل هذا الامتحان؛ ذلك لأنهم نالوا أعلى المراتب في الحياة المعنوية فكان لزاماً عليهم أن يتعرّضوا إلى أصعب امتحان، ولا سيما أن الاجتهادات العديدة التي ظهرت في العهود التالية حول كيفية إدارة الدولة قد صعبت من تلك الامتحانات وجعلتها

أشدّ وطأة، ولكن مع ثقل الامتحان وقسوته لم ينحرف أيُّ صحابيٍّ عن التماس طريق الحق، وعندما تبين لبعضهم أنهم لم يكونوا على الحق أغمدوا سيوفهم في ظرفٍ لم يكن من السهل أبداً إغمادها.

لقد أدركت أمتنا عائشة عليها السلام خطأها عندما وقفت أمام الإمام علي عليه السلام، وتذكّرت أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أشار بشكلٍ ضمنيٍّ إلى هذا الأمر قبل انتقاله، فركبت دابّتها ورجعت وهي نادمة أشدّ الندم ^(٧٥).

كان الزبير بن العوام رضي الله عنه رجلاً شجاعاً وشهماً، فلقد أسلّم وهو ابنُ ثَمَانِي سِنِينَ، وَهَاجَرَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَ عُمُهُ يُعَلِّقُهُ فِي حَصِيرٍ، وَيُدْخِنُ عَلَيْهِ بِالنَّارِ، وَيَقُولُ: ارْجِعْ إِلَى الْكُفْرِ، فَيَقُولُ الزُّبَيْرُ: لَا أَكْفُرُ أَبَدًا ^(٧٦)، كان الرسول صلى الله عليه وآله يقول: "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرِ بَنُ الْعَوَامِ" ^(٧٧)، ملفتاً الأنظار إلى شجاعته وشهامته.

ولما دارت الأيام ووجد الزبير نفسه يوم "الجمال" أمام علي عليه السلام وجهًا لوجه حتى اختلفت أعناق دوابهما؛ خَلَا عَلِيٌّ بِالزُّبَيْرِ فَقَالَ: أَنَشُدُكَ بِاللَّهِ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ وَأَنْتَ لَا وَیَدِي فِي سَقِيفَةِ بَنِي فَلَانٍ: "لَتُقَاتِلَنَّهُ وَأَنْتَ ظَالِمٌ لَهُ، ثُمَّ لَيُنْصَرَنَّ عَلَيْكَ"؟ قَالَ: قَدْ سَمِعْتُ، لَا جَرَمَ، لَا أَقَاتِلُكَ" ^(٧٨)، لقد نزلت كلمات علي عليه السلام -وهو ينقل عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: "وأنت ظالمٌ له" - على مسامع الزبير رضي الله عنه كالصاعقة، فلقد نسي الزبير رضي الله عنه ذلك الموقف بمرور الزمن، إلا أن عليّاً كرّم الله وجهه لما ذكره تذكّر وأذن للحق وأغمد سيفه في أحلك الظروف وأشدّ الأوقات.

(٧٥) انظر: صحيح ابن حبان، ١٥/١٢٦.

(٧٦) الطبراني: المعجم الكبير، ١/١٢٢؛ الحاكم: المستدرک، ٣/٤٠٦.

(٧٧) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ٤١.

(٧٨) ابن أبي شيبة، المصنف ٧/٥٤٥.

واحتضن عليًا وطلب منه العفو والصفح، ثم ركب جواده وترك ميدان القتال، وسار ليلتين من البصرة فمرَّ على ماءٍ لبني "مجاشع"، فعرفه رجلٌ من تميم، يقال له "ابن جرموز" فقتله، وجاء بسيفه إلى علي، فقال: هذا سيف الزبير، قد قتلته، فقال علي: بِشَرِّ قَاتِلِ الزُّبَيْرِ بِالنَّارِ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَإِنَّ الزُّبَيْرَ حَوَارِيِّي" ^(٧٩)، لم يكن عليٌّ ﷺ يتكلَّم من عنده، بل ينقل ما سبق وأن سمعه من الرسول ﷺ، لقد أخذ عليٌّ ﷺ سيفَ الزبير ﷺ ونظر إليه قائلاً: سيفه لعمرى سيفٌ والله لطالما جُلِّيت به الغمرات عن وجه رسول الله ﷺ، ثم انفصح هو وبنيه ليكون على الزبير ﷺ، ولما قيل له: يا أبا الحسن هذه فاطمة تبكي على الزبير؟ قال: فعلى مَنْ بعد الزبير إذا لم تبك عليه ^(٨٠).

كما ترون فقد امُتِحَن الصحابة ببعضهم أيضًا، ولكنهم عندما اقتتلوا فيما بينهم اقتتلوا في سبيل الحق باجتهادٍ منهم، وعندما تبين لهم أنهم ليسوا على حقٍّ توقَّفوا عن القتال وجنحوا للسلم، لم ينتقد أحدٌ منهم القدر، ولو قاموا بمثل هذا النقد لتضاعفت المصيبة، وكلَّمَا تعرضوا للامتحان من قبل الله تعالى استغلوا فطنتهم العظيمة التي وهبها الله لهم وحاولوا الوصول إلى الحقِّ في ضوء الظلال النورانية القرآنية.

ومن ذلك ما كان بين أبي بكرٍ وعُمَرُ ﷺ من مُحَاوَرَةٍ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَأَنْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَعْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَعْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ عِنْدَهُ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ" قَالَ: وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَصَّ

(٧٩) الطبراني: المعجم الأوسط، ١٣٠/٧.

(٨٠) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ٤١٢/١٨-٤٢٣.

عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتُ" ^(٨١).

ولكن ما نريد هنا التأكيد عليه هو تجريم الصحابيِّين لأنفسهما وإعلائهما كلمة الحقِّ على ما سواها، فإذا لزم الأمر أن يجتمعا حتى في النار لدخلوها وكأنها الجنة.

لم يقيم علي بن أبي طالب ﷺ بيعة أبي بكر ﷺ مدة ستة أشهر وكان من حوله من محبيه يريدون منه المطالبة بالخلافة، وبعد انقضاء ستة أشهر وبُعِيد وفاة فاطمة الزهراء ﷺ جاء إلى المسجد النبوي وذكر أمام الحاضرين في المسجد بأن امتناعه عن بيعة أبي بكر ﷺ مدة ستة أشهر لم يكن مبعثه معارضته له، وأنه جاء لمبايعته ﷺ ^(٨٢).

يجب أن يكون الإنسان وقفاً عند الحق، وكان الصحابة يطلقون صفة "الوقاف عند الحق" على عمر بن الخطاب ﷺ، فلم يكن يُقَدَّسُ أو ينحازُ لرأيه الشخصي أبداً، لأنه ما إن يذكر له أحد آيةً أو حديثاً لتصحيح رأيه حتى يرجع عنه حالاً ويلتزم بالحق.

فَعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: "أَلَا لَا تُعَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْلُغُنِي عَنْ أَحَدٍ سَاقَ أَكْثَرِ مِنْ شَيْءٍ سَاقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ سِيقَ إِلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُ فَضْلَ ذَلِكَ فِي بَيْتِ الْمَالِ" ثُمَّ نَزَلَ، فَعَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ قَرِيبٍ، فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

(٨١) صحيح البخاري، تفسير القرآن، ١٤٢.

(٨٢) صحيح البخاري، المغازي، ٤٠.

أَكْتَابُ اللَّهِ تَعَالَى أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَوْ قَوْلُكَ؟ قَالَ: "بَلْ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَا ذَاكَ؟" قَالَتْ: نَهَيْتِ النَّاسَ أَنْفًا أَنْ يُعَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ (سورة النِّسَاء: ٢٠/٤)، استمع عمر رضي الله عنه بكلِّ أدب إليها، والحقيقة أن نصيحته لم تكن خطأً إلا أن حساسيته وأدبه دفعه إلى قول: "كُلُّ أَحَدٍ أَفْقُهُ مِنْ عُمَرَ" مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمُبْتَرِّ فَقَالَ لِلنَّاسِ: "إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تُعَالُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ أَلَا فَلْيَفْعَلْ رَجُلٌ فِي مَالِهِ مَا بَدَأَ لَهُ" ^(٨٣).

حاشا لله فما كان عمر رضي الله عنه يجهل دينه، ولكن كان مفهومة للحق وارتباطه به عميقاً إلى درجة أنه لم يشأ أمام كلام تلك المرأة سلوك طريق التأويل أو الاعتراض، بل قَبِلَ الْحَقَّ بِكُلِّ بَسَاطَةٍ.

لم ولن تُنْجِزِ الْأَعْمَالُ الْكَبِيرَةَ وَالْمِهَامُ الثَّقِيلَةَ إِلَّا مِنْ قَبْلِ أَنْاسٍ عَلَى هَذَا الْمَسْتَوَى، وَكَلَّمَا كُنَّا قَرِيبِينَ مِنْ رُوحِ الصَّحَابَةِ اقْتَرَبْنَا أَكْثَرَ مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَفَقًّا لِقَانُونِ السَّبَبِ وَالنَتِيجَةِ؛ فَإِنْ ثَقُلًا مَعِينًا فِي عَهْدٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى عَضَلَاتٍ قَوِيَّةٍ لِرَفْعِهِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى نَفْسٍ قُوَّةٍ الْعَضَلَاتِ لِرَفْعِهِ فِي عَهْدٍ آخَرٍ أَيْضًا، فَالْأُذْرُعُ الضَّعِيفَةُ تَعْجِزُ عَنْ رَفْعِ تِلْكَ الْأَثْقَالِ.

فَكَمَا نَحْتَاجُ لِنَزْنِ كِيلُو غَرَامًا وَاحِدًا إِلَى وَضْعِ كِيلُو غَرَامٍ مِثْلِهِ فِي الْكَفَّةِ الْآخَرَى مِنَ الْمِيزَانِ؛ فَكَذَلِكَ هَذِهِ الْقَوَانِينُ ثَابِتَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ، فَكَمَا تَحَقَّقَتْ الْحَقَائِقُ الْكُبْرَى وَالْغَايَاتُ الْمِثَالِيَّةُ عَلَى يَدِ أَنْاسٍ عَلَى نَمَطِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، فَهِيَ تَحْتَاجُ الْيَوْمَ كَذَلِكَ إِلَى مِثْلِ هَذَا النَّمَطِ لَكِي تَظْهَرَ الْيَوْمَ وَتَتَنَصَّرَ، أَمَا أَنْتَظَرُ انْتِصَارَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ وَظُهُورَهَا بِوَسَاطَةِ أَشْخَاصٍ

ضعفاء لا حول لهم ولا قوة فهو محال التحقيق لأنه ضربٌ من ضروب الخيال، إذًا علينا أن نكون كالصحابة في التزام الحق وفي الشعور بالوحدة ولم الشمل لكي يرى الأعداء أن أبواب الفتنة موصدة أمامهم، ولا بد أن يقضي عليهم اليأس بينما نجيشُ نحنُ بالأمل، ولا يتم هذا إلا إذا فرزنا من عبادة النفس إلى الالتزام بالحق، فهذا هو الطريق المؤدي إلى الوحدة وإلى لم الشمل.

obeikandi.com

إقامة التوازن بين الدنيا والآخرة

سؤال: كيف يمكن تقييم الدنيا في ظل الظروف الراهنة؟ نحن لا نستطيع إقامة توازن بين الدنيا والآخرة؛ فكيف نجح الصحابة في ذلك في عهد النبوة وما بعده؟

الجواب: الدنيا منزلٌ من منازل عديدة نمَرَّ بها ونجتازها، وهناك آيات قرآنية عديدة وأحاديث نبوية كثيرة تعلمنا هذه الحقيقة وتذرننا بها، فالإنسان ينتقل من عالم الأرواح إلى رحم الأم ومنه إلى الحياة الدنيا، وبعد أن يجتاز فيها مراحل الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة ينتهي به الأمر إلى القبر فعالم البرزخ والحشر، ثم إلى الحياة الخالدة الأبدية؛ أي إنه لا يبقى في هذه الرحلة الطويلة سوى أيام معدودات في الحياة الدنيا.

أجل، فالدنيا ليست إلا منزلاً واحداً من منازل عديدة للإنسان، ويصور الرسول ﷺ لنا ذلك فيقول: "مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"^(٨٤)، فالإنسان مسافر سفرًا طويلاً، ولكي يرتاح برهةً في أثناء هذا السفر يقضي وقتاً قصيراً في ظل شجرة، وإلا فالدنيا ليست مقامه أو منزله الدائم، بل هي عبارة عن محطةٍ من محطات الاستراحة القصيرة لا غير.

وطننا الأصلي هو دارُ الأرواح، فقد لبسنا حلّة الجسد من هناك، وجئنا إلى الدنيا حتى نشكّل حياتنا الأبدية ثم نعود إلى وطننا الأصلي مرةً أخرى، لذا يجب تقييم الدنيا من هذه الزاوية.

والمؤمن إنسانٌ متوازنٌ، لذا يجب أن يقي نفسه من الإفراط ومن ضرباته المهلكة كما هو الحال في كلّ أمر، وأحسب أن تحقيق هذا المعيار إنما يتأتى بإعطاء أهميّةٍ للدنيا بنسبة البقاء فيها وإعطاء أهميةٍ للآخرة بنسبة البقاء فيها أيضاً، والقرآن الكريم يعلمنا يقول: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (سورة القصص: ٧٧/٢٨).

ماذا آتانا الله؟ لقد آتانا العقل والقلب والروح والجسد والصحة والشباب ونعمًا أخرى لا تُعدُّ ولا تُحصى، وكلّها رأسمال، وبهذا الرأسمال نستطيع شراء الآخرة، وقد ورد هذا الموضوع في آية أخرى هكذا ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (سورة التوبة: ١١١/٩).

الإنسان هنا هو الطرف الذي يُعطي المتاع الزائل الفاني، والله تعالى هو الذي يعطي ويهب ما يبقى ولا يزول، ومن أجل هذا العقد يدعونا القرآن أن نبتغي الدار الآخرة، لذا كان من الواجب علينا أن نضع الدار الآخرة نصب أعيننا وأن تكون النقطة المحوريّة لكل حركة وكل تصرّف من تصرّفاتنا؛ لأننا سنبقى هناك بقاءً خالدًا، والدنيا هي الكوّة الوحيدة المؤدّية إليها والطريق الوحيد للفوز بها.

والآية توصينا بالآل ننسى نصيبنا من الدنيا، ولكن بأسلوبٍ يشعرونا بأن الدار الآخرة هي الأساس وهي الغاية التي يجب أن نختارها ونسعى إليها؛ ذلك لأن الآخرة هي الدار التي يتطور فيها الإنسان ويسمو بجميع

جوانبه، فإن شبهنا الحياة الدنيا ببذرة، فإن الآخرة هي الشجرة الباسقة العالية نحو السماء والمتولدة من هذه البذرة.

أجل، إن جميع الحواس والمشاعر ستنمو وترتقي بشكل غير محدود في الجنة، فقابلية الرؤية والتذوق والسمع... إلخ ستزداد أضعافاً مضاعفةً بينما مثل هذه القابليات كانت تبلغ في الدنيا واحداً أو اثنين من ألف تقريباً، ثم إن المؤمنين سيشاهدون من الجنة جمال الله تعالى أيضاً، ورؤية هذا الجمال لحظةً واحدةً تُعادلُ لذةَ آلاف السنوات في الجنة، إذا فعلى الإنسان أن يضع كل هذا نصب عينيه عندما يقوم بعملية اختيار بين الحياة الدنيا وبين الحياة الآخرة؛ فهل هناك شيء يُفضّل السعادة برؤية الله تعالى؟ علمًا بأن الحصول على رضوان الله تعالى نعمة لا يُعادلها أي منصب أو جاه، بل إن الجنة بكل نعيمها وبكل زينتها تبقى باهتة تجاهها.

والقرآن الكريم يُرشدنا إلى أن رؤية الله تعالى هي أعظم نعمة وإحسان يتفضل الله تعالى به على المؤمنين في الآخرة، فيقول: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (سورة التوبة: ٧٢/٩)، وجاء في الحديث الشريف: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِّنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِمَّنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِمَّنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أُحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا" (٨٥).

فإذا ما وضعنا هذا القسطاس للحياة ما أهملناها أبداً؛ بل سنحبُّها لا من أجلها، بل لكونها جسراً وطريقاً مؤدياً إلى الآخرة، ولا يوجد لمثل

هذه العلاقة أو الرابطة أيُّ محذورٍ، وكما يقال: "الدنيا مزرعة الآخرة"، ونستطيع أن نصل بالأمر إلى أبعد من ذلك فنقول إننا لا نستطيع أن نكون أهلاً للآخرة إلا بوساطة الدنيا؛ ذلك لأن جميع حواسنا ومشاعرنا ولطائفنا وقابلياتنا تنمو في الدنيا وتتوسع، وهكذا نستطيع أن نكون أهلاً لرؤية الله تعالى.

إن الإنسان لا يستطيع رؤية الله تعالى في الدنيا لأنه لا يملك هذه المؤهلات ولم يتهيأ له ولم يصل بعد إلى هذا المستوى من الاستعداد، والمسألة لا تتعلق بأبعاد الزمان والمكان أو غيرها من الأبعاد، فالله تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد، يحنو علينا بإحساناته، ويقضي في شؤوننا بإرادته، ويتصرف بقُدْرَتِهِ اللانهائية، وإذا أردنا التعبير عن هذا بتعبير صوفي نقول: "لا شيء أظهر من الله تعالى، ولكنه خفي عن العيان"، فإن كنا لا نستطيع رؤيته فهذا يرجع إلى قصورنا، وإزالة هذا القصور في يده تعالى، وسيزيله في الدار الآخرة فيستطيع المؤمن رؤية جمال الله ويصل إلى أمله وبُغْيته الأصلية.

إذا فالدنيا مزرعةٌ تُثمر لنا مثل هذه النتائج، وعندما ينتقل الإنسان من الدنيا إلى العقبى تزول الحجب النورانية واحداً تلو آخر؛ فيرى الإنسان عند ذلك ربّه.

إنّ الدنيا عبارة عن تجليات أسماء الله تعالى، لذا علينا ألا نستهيئ بأيّ شأنٍ من شؤون الدنيا؛ لأن حقائق الأشياء ما هي إلا تجليات لأسماء الحق تعالى، وكما يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله: "إننا نحن وإرادتنا وكلّ ما يحدث حولنا نُشْبِهُ رايةً منصوبةً على عمودٍ مرتفعٍ جداً، وعلى هذه الراية كتابات ترفرف بها، والذي يُحرّكها ويرفرفها هو الله تعالى سلطان

الأزل والأبد"، لذا فإننا إذا ما نظرنا إلى الحوادث والأشياء على أنها بستان -تحت إرادته وتصرفه- تتجلى فيه أسماء الله تعالى وصفاته؛ نُشاهدُ جماله على كل زهرة وعلى كل قطرة ماءٍ عليها وعلى كل حبة ندى فوقها، ويُعبّر جلال الدين الرومي عن هذا الأمر بتعبيرٍ ربما يصعبُ فهمه على كثيرين فيقول:

"إن الخيالات التي هي شبّاك الأولياء إنما هي مرآة عاكسة تعكس الوجوه النيرة في حديقة الله" (٨٦).

عرض الله تعالى أمام أنظارنا بتجليات أحديته بعض الجماليات في ذاته، ثم أوصلنا بلطفه وكرمه وأسرار أحديته إلى القدرة على استنباط بعض الأمور وفقاً لدرجتنا المعنوية، فلما تجلّت هذه الوجوه النورانية في بستان الأحديّة للحقّ تبارك وتعالى استطعنا أن نراها بأبصارنا المحدودة في هذا العالم، وأن نشهد تجلّي ربّنا ﷻ فيها، ففتن بها من فتن، ووقع في حُبّها من وقع، أما من حُبّنها وهام على وجهه في الصحراء فهو كما قال يونس أمره: يظل يطلبها بلسان الحوت في البحار والغزال في الصحراء، أما الآيات الدالة عليه ﷻ كعصا موسى ﷺ فتنعكس في بستانه ﷻ على مرآة روحنا.

لا أنوي هنا شرح هذه المسألة الدقيقة فالذي نريد أن نقوله في هذا الموضوع الذي شرعنا فيه من طريق غير مباشر هو: أن الدنيا بستان الله تعالى، وأن أنوار ذوي الوجوه النيرة في هذا البستان تنعكس على مرايا قلوبنا وتتجلى فيها، فإذا كان الحال هكذا فإنّ ما نقوم به من أمورٍ دنيوية هو عبارة عن موجات تجلّ آتية منه على أطوالٍ مختلفة، ونحن هنا لا نتناول

بالطبع الموضوع بنظرة أصحاب وحدة الوجود أو أولي وحدة الوجود، لا نتناوله هكذا ولكننا نؤيد قول الإمام أحمد السرهندي الملقب بالإمام الرباني رحمه الله: "إن حقائق الأشياء عبارة عن تجليات الأسماء الإلهية". أجل، نحن لا نستطيع ترك الدنيا لأننا لن ننال الآخرة إلا بوساطة الدنيا، صحيح أنها عبارة عن ركام من الأراجيف والأوساخ، ولكن كم من جواهر نفيسة للحقائق كامنة في هذه الأراجيف، هناك قصة في "المنوي" عن محمود الغزنوي، وهي وأشباهاها قصص رمزية، والحق أن الحكيم الهندي "بيدبا" قبل "لافونتين" قد قام بسرد القصص والحكم على لسان الحيوانات، وقام بعده كثير من علماء المسلمين باتباع الأسلوب نفسه في كتبهم، ومن بينهم مولانا جلال الدين الرومي، إذ أورد قصة على لسان محمود الغزنوي وكلبه الرابض أمام بابه، فقال:

"كان كلبه يذهب كل يوم إلى مزبلة أمام القصر ويظل ينش ويبحث فيها فلا يجد شيئاً يأكله، ومع ذلك يذهب في اليوم التالي إليها ويظل يبحث فيها عما يأكله حتى المساء، كان هذا ديدنه كل يوم، فقال له محمود الغزنوي ذات يوم: منذ أيام وأنت تنش في تلك المزبلة فلا تجد شيئاً ومع ذلك لا تكف عن الذهاب إليها، ألم تسأم وتملّ من هذا البحث غير المجدي؟ فقال له الكلب: لقد وجدت في أحد الأيام في هذه المزبلة عظمة، ومن أجلها أذهب كل يوم لعلي أجد عظمة أخرى".

الدنيا في نظر أهل الحقيقة ركام من الأراجيف مثل ركام تلك المزبلة، والله تعالى خلط في هذه الدنيا الخير مع الشر والجميل مع القبيح، ولكي لا يُنسب قبْحُ الأشياء إليه تعالى مباشرة؛ وضع أستار الأسباب، فبقي القبح الظاهري للأشياء وراء هذه الأستار، ولكن الله تعالى هو خالق

كلّ هذه الأشياء التي تتجلى فيها ما لا نعلمه أو نحصىه من أسمائه تعالى، الأسماء الإلهية لا حصر لها وهو وحده يعلم عددها، فهناك أسماء لا يعلمها إلا هو، ولم يُطلع أيّ نبيٍّ أو ملكٍ مقرَّبٍ عليها، وهذا معنى دعاء النبي ﷺ: "أَوْ اسْتَأْذَنْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ" ^(٨٧)، ومن ثمّ علينا أن نقوم نحن بالنبش في هذه الدنيا وأن نبحث بكلّ شوقٍ في الأماكن التي يظنها الآخرون مزبلة من المزابل؛ لعلنا نبلغ حقيقةً أخرى زيادة على الحقائق التي عثرنا عليها.

هناك وجه آخر للدنيا نفر منه ونهرب؛ وهو وجهٌ يتعلّق بها؛ لأنها فانية وزائلة، لا تعطيك قطعةً واحدةً من الحلوى إلا مقابل صفعات عديدة؛ فهذا الوجه هو وجه اللهو والغرور، وهو الوجه الذي يقبل عليه أهل الدنيا ويجلّونه، بينما هو وجه قبيح بالنسبة لنا، وكلما زاد البغض منه كان أفضل.

إذاً نستطيع إقامة التوازن بين الدنيا وبين الآخرة من هذه الزاوية، الدنيا زائلة، والآخرة باقية، ولم يترك الرسول ﷺ الدنيا ولم ينعزل عن الناس، ولكنه كان على الدوام مع الحق تعالى، كيف لا وهو القائل: "الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَضْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَضْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ" ^(٨٨).

علينا أيضًا أن نتصرّف على هذا النحو؛ فنخرج إلى الأسواق والشوارع التي تجري فيها الأراجيف أنهارًا، ونستمرّ طلابًا وأساتذة في الذهاب إلى المدارس والجامعات، وربّما في سبيل هذا نتحمّل كثيرًا من الأذى

(٨٧) مسند الإمام أحمد، ٦/٢٤٧.

(٨٨) سنن ابن ماجه، الفتن، ٢٣.

المعنوي والمادي، وربما يسدّ هذا في وجوهنا السبل المؤدية إلى الولاية والقرب منه تعالى بشكلٍ إرادي أو غير إرادي، ولكن علينا أن نضحي حتى ببعض مشاعر الفيوضات الربانية، فكما رجع رسول الله ﷺ من الجنة -أثناء المعراج- ولم يتأثر بزيتها وحسنها فعلى أن نتخلق بخلق الرسول ﷺ ونحاول تمثيل الحقيقة الكبرى التي جاء بها ﷺ، والذين يقفون في الدنيا كمن يقف فوق جمرات من النار، مثل هؤلاء لا يمكن أن يتطلّعوا أبداً إلى الوجه الفاني للدنيا، ولا يمكن أن يشغلوا قلوبهم بها، وهم وإن كانوا دائماً بين المخلوقات فإنهم دائماً مع خالق المخلوقات تعالى.

لم يفكر الرسول ﷺ في الدنيا حتى عندما أقبلت بِلَهْنِيَّتِهَا عليه، فلم يفكر في الاستفادة منها رغم إمكانية ذلك، لقد رحل عن الدنيا مثلما جاء إليها، جاء إليها فلفّوه بقطعة قماش، ورحل عنها فلفّوه بقطعة مثلها.

لقد حاول الرسول ﷺ طوال حياته السنية تأسيس حضارة تلهج بذكرها الحضارات وإقامة عالم متوازن هنا في الدنيا وهناك، ولم يتنازل طوال حياته قطّ عن دعوته هذه.

لقد دانّ بالتسليم المطلق لله تعالى طوال حياته، فعاش في اطمئنانٍ يحاول دائماً كسب رضا الله تعالى وإنقاذ الإنسانية، فلم يتكدر صفوه بأهواء الدنيا وبملذاتها، أقام نظام الإسلام وطبقه في بيته، فلما طالبت بعض نسائه بأخذ حظهن من الدنيا وزينتها اعتزلهن حيناً، حتى إنه ﷺ خيرهن -بأمر من الله تعالى- بين البقاء معه والاكتفاء بما عنده أو تسريحهن بإحسان، حينذاك فضّلت زوجات الرسول ﷺ البقاء معه وتحمل شظف العيش معه على نعيم الدنيا وملذّاتها، في هذه الأثناء دخل عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ

وهو في غرفته معتزلاً نساءه، فرأى أثر الحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَى، فَقَالَ ﷺ: "مَا يُبْكِيكَ؟" فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ! فَقَالَ: "أَمَّا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ" (٨٩).

لم يترك رسول الله ﷺ الدنيا، بل قام برؤية وإظهار جميع الحقائق الإلهية المتجلية في الكون وتبليغها وتوصيلها إلى العالم أجمع بجيوشه التي انطلقت إلى أرجاء الأرض تحمل معها الإسلام وتنصب رايته في كل مكان، وأرى هنا من الضروري تسجيل نتيجة توصل إليها بعض علماء الاجتماع المعاصرين، إذ قالوا ما يأتي:

كانت البشرية قد سجّلت حتى عهد رسول الله ﷺ تقدُّماً مقداره ٢٥٪، ولكنها استطاعت بفضلله وفي عهده -أي في مدّة قصيرة- زيادة هذه النسبة إلى ٥٠٪، ولم تستطع البشرية منذ عهده وحتى الآن إلا تسجيل نسبة زيادة بمقدار ٢٥٪ فقط، ومن المتوقع أن تصل إلى النسبة الباقية في المستقبل، وهكذا قطع ﷺ في ربع قرنٍ مسافةً لم تستطع الإنسانية أن تبلغها لعدة عصور، وثبت أنه هو القدوة والأسوة لجميع الأجيال حتى قيام الساعة.

لم ينزل ولم يترك الدنيا -نكرر هذا مرةً أخرى- بل عرف كيف يوجّه أُمَّتَهُ التوجيه الصحيح ولأي شيء يجب إعطاء الأهمية وبأي نسبة.

obeikandi.com

تخليص الإرادة من قبضة مشاعر الشر وقت الفراغ

سؤال: في أوقات فراغنا يلقي الشيطان في قلوبنا كثيرًا من الشبهات والشكوك وتصبح إرادتنا ألعوبة في يد مشاعرنا حتى نحس بأن صبرنا عن المعاصي قد بدأ ينفد، فبماذا توصوننا؟

الجواب: بدايةً يجب أن نستعيد بالله من دسائس الشيطان وفتنه وتزيينه الشرور وأن نضع جباهنا على الأرض ساجدين؛ لنكسر غرورنا؛ لأنَّ "أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ"^(٩٠)، وأن ندخل في حرز ربنا سبحانه مبتهلين إليه قائلين: "اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ"^(٩١).

إن القول بأن الشيطان يتسلط علينا في أوقات فراغنا هو تعبير عن الحقيقة، فالشيطان يتسلط أكثر ما يتسلط على الأشخاص العاطلين الذين لا يقومون بأي نشاط ديني ولا يحملون هم الدعوة إلى الله؛ لذا علينا أن نبدأ من نقطة البداية هذه ونتخلص من الخمول والفراغ، ونبحث عن طرق النشاط.

وما دام الشيطان يستفيد في الأكثر من فراغنا فيوسوس في صدورنا ويزين الشرور في أعيننا ويحضننا على اقتراف الآثام، إذًا فعلينا أن نشغل أنفسنا دائمًا بمشاغل الخير، ونحاول سد الفراغات التي ينفذ منها

(٩٠) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٥؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٥٦.

(٩١) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٢؛ سنن الترمذي، الدعوات، ١٣١.

إلى أنفسنا، وأن نشبّع بالفكر والعمل حتى لا ندع له مجالاً ينفذ منه إلى أرواحنا، إن الشيطان لن يجد طريقاً يوسوس من خلالها في صدور المرتبطين بالله تعالى والمجددين معه هذه الرابطة من خلال التأمل الدائم للآفاق والأنفس، كما لا قبل له بأن يتلاعب مع الذين يذكرون الموت على الدوام ويتأثرون به ولا يستطيع أن يهزمهم.

ولن يستطيع الشيطان فرض نفسه ووساوسه على رجل الدعوة الذي ينافح ليل نهار لإعلاء راية الإسلام في كل أنحاء الأرض، ولن تستطيع يد الشيطان الخبيثة أن تمتد إلى إنسان تشبعت جميع أحاسيسه ومشاعره بالإيمان اليقيني، وعَمَرَ قلبه بالفيوضات الإلهية.

والخلاصة أننا إن كنا على ارتباط وثيق بربنا فلن يدعنا للشيطان الذي هو عدونا المشترك. فهل من الممكن أن نكون أوفياء لدينه فننصره ولا يكون هو ﷺ -حاشاه- وفيّا لنا؟ بل هو أوفى الأوفياء، فلا شك أنه لن يكلنا إلى أهوائنا، ولن يتركنا للانحلال والتفسخ؛ فهو يقول في كتابه العزيز: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (سورة البقرة: ٤٠/٢)، فهل من الممكن أن يسلط ربنا سبحانه الشيطان علينا ونحن نعمل على نصرته دينه؟ أبداً، بل على العكس تماماً، ففي مثل هذه الأوضاع سيجعل لساننا رطباً بذكره، ويردنا إلى أنفسنا لتذكر ونبتعد عن الهاوية التي أعدها الشيطان لنا، مثلما أبعد بعض صحابة رسول الله ﷺ الكرام، فقد جاءت أوقات تكذّرت فيها أبصارهم ودارت فيها رؤوسهم لكونهم بشرًا، ولكن الرب سبحانه أراهم برهانه وصرف أبصارهم إلى المعالي الآخرة مجدداً.

ولو ألقى كل من يعمل في الدعوة نظرة متأملّة على حياته لرأى كيف أنه أشرف أكثر من مرة على شفا الجُرف الهار باستعماله إرادته استعمالاً

سيئاً أو نتيجة خطأ ارتكبه دون قصد، وكيف مدّت العناية الإلهية يدها إليه وأنقذته، وبنسبة إخلاصه وصدقه رأى عون الله ولطفه، وشاهد مكتوباً على ناصية إرادته سرّ الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سورة مُحَمَّد: ٤٧/٧).

إنّ إرادتنا جزئية وضيقة للغاية، وعلى الرغم من هذا فقد جعل الله تعالى هذه الإرادة الجزئية شرطاً عادياً ليقب بها كلّ ألعيب الشيطان، إنّ قيامنا بقطع الطريق أمام ما يلقيه الشيطان وما تلقيه النفس الأمّارة بالسوء فينا منذ البداية يعني سيطرتنا على أرض المعركة إلى حدّ ما، وقد تأتي أوقات تسيطر فيها خيالاتنا علينا حتى لا نستطيع التغلب عليها، وقد نستطيع في أوقات أخرى التخلص منها والابتعاد عنها ومحاکمتها وإن رضخنا لها برهة، أحسب أنكم ستؤيّدون ما أقول؛ فقد تأتي أوقات وأوضاع لا تكفي لمواجهتها إرادتنا وحيوية قلوبنا، عند ذلك نستمدّ العون من أشخاص تسطّع وجوههم بالحقيقة، وتتوافق إرادتهم مع إرادة ربهم سبحانه؛ بحيث إذا ما جالسناهم شعرنا وكأننا نجلس بين يدي نبيّ من الأنبياء، كلامهم وحديثهم إكسير الحياة يُذيب على الفور الأفكار والمشاعر السيئة التي تجمّدت داخلنا، وأحياناً نكون نحن أيضاً مظهرًا لمثل هذا الحال والجوّ الروحاني، فيلجأ إلينا الآخرون يلوذون بمناخنا ويعتمدون علينا في مواصلة وجودهم.

فالله تعالى خلق الإنسان بفطرة تميل إلى التعايش مع الآخرين فلا يستطيع الإنسان الاستغناء مادياً ومعنوياً عن مجتمعه، وهنا تقع علينا مهمة عدم الابتعاد عن الأصدقاء الصالحين؛ لأن الصديق الصالح يُحيي قلوبنا على الدوام بنصائحه، وينفث فيها الحماس والوجد، لذا يجب

المحافظة على مثل هذه الصداقة في كل حين؛ في المدرسة وفي السوق وفي السفر الطويل، وبذلك لن يتسلل الشيطان -إن شاء الله- إلى قلوبنا مع وجود مثل هذا الحصن الحصين من الصداقة.

وأمر آخر وهو لزوم الإصغاء بقدر الإمكان إلى النصائح التي ترقق القلب، فالنصائح التي تذكّرنا بالآخرة وبالعالم الآخر وتبعث فينا الوجد والشوق مهمة جداً، والنصيحة بهذا المعنى هي الدين نفسه، وعندما كان أسلافنا يقومون بالوعظ والإرشاد في المساجد كانت المساجد تطفح بالشوق والحماس فالإمام فخر الدين الرازي الذي أتقن الفلسفة وعلم الكلام وبرز فيهما كان عندما يعظ على المنبر يجهد بالبكاء فلا يفهم السامعون بعض ما يقوله؛ لذا نعدّ نحن جماعة سيئة الحظّ لأننا حرّمنا من أمثال هؤلاء الوعاظ الربانيين، علماً بأن الإنسان مخلوق يحتاج إلى خشوع القلب وإلى دموع العين، وهو محتاج كل يوم إلى التأمل في عالمه الداخلي والتعمّق فيه، والبكاء من متطلبات هذا الأمر، والقرآن الكريم يمدح أصحاب القلوب الرقيقة والأعين الدامعة فيقول: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (سورة مزيم: ٥٨/١٩).

لذا فما أحسن أن نقرأ كل يوم بضع صفحات عن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ممّن عاشوا الإسلام بصدق، ونلوّن حياتنا بهم فإذا خرجنا إلى الشارع أو السوق خرجنا بهذه الروح المشحونة، فإن فعلنا هذا استقام عالمنا الداخلي من جهة، ووجدنا من جهة أخرى فرصة مقارنة أنفسنا برجال القلب والروح الحقيقيين من أمثال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ونقول لأنفسنا: "لقد كان هؤلاء مسلمين، ونحن أيضاً مسلمون، فلماذا كانوا هكذا ولماذا أصبحنا نحن هكذا؟"، وبهذه المحاسبة والمراقبة

الذاتية نستطيع تجديد أنفسنا، فإن فعلنا هذا بضع مرّات على الأقل كلّ أسبوع فنحن نأمل أن يساعد هذا على تريق قلوبنا وإزالة الصدأ الذي نشعر بوجوده أحياناً في ذواتنا، عند ذلك نستطيع أن نحس في قلوبنا بجميع التجليات الإلهية التي تنعكس عليها بكلّ أنوارها، ونتجنب وساوس الشيطان، ويحصل هذا إما بالاستماع إلى شخص أو بقراءة القرآن أو بقراءة التفاسير، فكما نحتاج إلى الهواء وإلى الماء وإلى الخبز فكذلك نحتاج وبنفس القدر إلى التجديد الذي لا حدود لأشكاله.

إذا فحضور مجلس شخص يستطيع بثّ الخشوع في قلوبنا وطلب النصيحة منه، وتجدد استشعار أفئدتنا برسولنا ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم؛ كلّ هذا بمثابة القوة التي تُساعدنا على البقاء والصمود، وحذار أن تقولوا لأنفسكم نتيجة مرض الألفة والعادة إنني أعلم هذا الموضوع فماذا يفيد إن قرأته مرّة أخرى أو لم أقرأه؟ ولا تقولوا ماذا لو استمعت أو لم أستمع؟ لأن هذا غفلة وانخداع، فكما تتكرّر الحاجة إلى الغذاء المادّي من طعام وشراب فكذلك تتكرّر الحاجة لتغذية حياتنا المعنوية وقلوبنا وضمائرنا وأحاسيسنا الأخرى بمثل هذه الأمور، واستناداً إلى ما سبق علينا أن نلجأ إلى كنف مرشدٍ يستطيع بجوّه الروحي أن يذيب كلّ الشرور ويرينا طرق وسبل تجديد أنفسنا، وقد يمكن تحقيق هذا الأمر أحياناً بالمطالعة أو بالتأمل أو بتذكّر الموت، وبقدر نجاحنا في تحقيق هذا بقدر ما نستطيع صيانة أنفسنا من وساوس شياطين الإنس والجن، ودعاؤنا الدائم لله تعالى هو أن يحفظنا من شرور أنفسنا ومن شرور الشيطان، علينا أن نلتزم هذه الأدعية والضراعة كي نبقي ضمن حرز العناية الربانية.

obeikandi.com

كيف ننجح في الامتحانات الإلهية

سؤال: كيف لنا أن نفهم قول الله تعالى ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٥٥/٢)؟

الجواب: هناك العديد من التفاسير المفصلة لهذه الآية، نحيل إليها من يرغب في تفسير مفصل، أما نحن فسنعرض شرحاً موجزاً للآية كيلا نردّ طلب السائل، وقد يكون ما نقوله إعلاماً للمعلوم بالنسبة لبعض الأصدقاء، ولكن على اعتبار أنّ كلّ ما يُناط بالقرآن الكريم مهمّ بالنسبة لنا فإننا ننظر إلى المسألة من هذه الزاوية على اعتبار تعلّقها بالقرآن الكريم وليس من باب أهميّة الردّ على السؤال.

وإليكم شرح هذه الآية:

يُقَسِّمُ ربُّنا تبارك وتعالى فيقول: لنختبرنكم ولنمتحننكم بشدائد الأمور فيظهر من هو صابراً محتسباً محافظاً على اتباع الرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه، إننا سنبتليكم بـ"خوف" يدبّ في أوصالكم؛ نرسله عليكم تباعاً، وسنسلط عليكم أهل الدنيا لئلا نرى من يخاف منكم ومن لا يخاف، ونظهره للعيان، والله تعالى بعلمه الأزلي يعلم هذا، وإنّما يريد إظهار من يخاف ومن لا يخاف منكم للعيان؛ لأن القدرة والإرادة متعلقتان به.

الخوف أحدُ صُورِ هذا الامتحان، فالإنسان يخاف من الزلازل والجوع والظلم والأعداء المادّيين والمعنويين، وهذا الخوف امتحانٌ واختبارٌ له.

والنوع الثاني من الامتحان هو الامتحان بـ"الجوع"، وقد تعرّضت الأمة المحمّديّة لمثل هذا الامتحان الشديد في عهودٍ معيّنة، ثم انحسر هذا الامتحان اليوم، صحيحٌ هناك بعض الجوع والبؤس، ولكن ما هذا إلا صفعاتٌ تنبيهٍ نتجت عن إسراف الإنسان وسوء استعماله، علماً بأن الأجيال السابقة - لا سيما في القرنين المنصرمين - تعرّضت إلى أفظع أشكال الجوع نتيجة تسلّط الأعداء في الداخل والخارج. أجل، ربما لا يزال الجوع إلى الآن يسيطر على بعض البلدان الإفريقية، غير أنّ هذا الجوع بمثابة صفةٍ تنبيهٍ لهم؛ لسوء استعمال الموارد هناك؛ ولأنني شرحت هذا بالتفصيل في مناسبات أخرى فلن أعيده هنا.

أما "النقص من الأموال" فقد يكون - من ناحية ما - بسبب ما ينزل في المستقبل من آفات، أو لزوال البركة، وهو إحدى صور الامتحان، وما ظاهرة التضخّم المالي في عصرنا إلا محض امتحانٍ من أشدّ هذه الامتحانات.

أما "النقص في الأنفس" فيأتي بمعنى القتل أو حرمان الإنسان من العيش كإنسان محترم، وكما يمكن أن يتعرّض العالم الإسلامي إلى امتحان "النقص في الأنفس" نتيجةً للجهاد ضدّ العدوان الخارجي، وكذلك يُمكن أن يتعرّض من يعيش الحياة الإسلامية إلى عزلةٍ من المجتمع فيعيش وكأنّه مواطن من الدرجة الثانية أو الثالثة، وهذا أيضاً نمطٌ من أنماط هذا الامتحان، كلّ هذه امتحاناتٌ وابتلاءات من قبل الله تعالى يتعرض لها المؤمنون.

وقد يمتحننا الله تعالى بنقص في "الثمرات" نتيجةً للآفات التي تُصاب بها الحداثق والبساتين، أو يمتحننا بنقص في ثمرات كل أنواع الأعمال والجهود التي نبذلها، وهذه الامتحانات إما امتحانات ناتجة عن الذنوب والآثام التي اقترفناها؛ فهي تنبيهٌ وتحذيرٌ لنا، أو هي امتحانات لرفع درجاتنا ومراتبنا عند الله تعالى؛ فهي إذًا لطفٌ من ألطاف الله تعالى علينا. ولا يظهر الصبر والصدق إلا بالامتحان؛ فالذين يُصرون أن يبقوا ملازمين باب الله تعالى ولا ينفكون عنه أملًا في الدخول في أية لحظةٍ مهما تعرّضوا للأذى والابتلاء هم الذين ينجحون في هذا الامتحان، أما الذين يتركون هذا الباب عند أقل محنة ويبدلون طريقهم واتجاههم فسيرسبون في هذا الامتحان.

عندما كان الرسول ﷺ يتعرض إلى بلاءٍ أو مصيبةٍ كان يهرعُ إلى الوضوء فالصلاة، والآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٥٣/٢) تعلّمنا هذه الحقيقة أيضًا، فإن أحاطت بكم البلايا وأظلمت آفاقكم فعليكم بالصبر والصلاة فهما طريقُ النجاة من هذه الدوامة، عليك أن تتحمّل وتصبر، وتصرّ على العبودية والتوجّه إلى حضرة مولاك تبارك وتعالى.

من المحتمل أن الله تعالى يريد بهذه الامتحانات أن يُظهر للعيان مدى وفائنا وولائنا وتحملنا وصدقنا وصبرنا رغبةً في أن يوجهنا إلى قيمنا الحقيقية وكذلك ألطافه علينا؛ أي سيقس مدى قوّة صبرنا وصدقنا برّد فعلنا وسلوكنا أثناء هذه الامتحانات ويعرّفنا بأنفسنا، وذلك لكيلا يكون للناس حجة على الله، وربما يعترض العبد بعد هذا القياس والتقييم لنفسه ويقول معترفًا: يا رب! كم كنتُ شخصًا متقلبًا متلونًا! لقد امتحنتني مرّة

وأغلقت الباب في وجهي مرة فأنحرفتُ وتحولتُ عن بابك وانصرفتُ عنك، بينما كان عليّ أن أصرع أعداءك وأبقى ثابتاً في مكاني أمام بابك لا أتحوّل عنه ولو تكررت أمامي المحن، لو عرّضتُ جيوشي للهزيمة مئات المرات لكان عليّ أن أعتصم بك وأقول: أنت غايتي يا رب، لو هدمت عليّ بيتي، أو حرقت قلبي بفقد أولادي وأموالي؛ لكان عليّ ألا أنحرف عن بابك، لو ابتليتني بالأمراض من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وبدأت أئنّ من الآلام والأوجاع لكان عليّ إذا ما وجدتُ في نفسي القدرة على النطق بكلمتين أو ثلاث أن أقول أيضاً: أنت غايتي يا رب، لكنني بدلاً من أن أكون هكذا وأقول هذا لم أستطع الصبر، واهتزت ورجعت وتركت بابك، فما أعظم جنايتي وما أكثر تلوّني وتقلّبي.

والعبد يُمتحن حتى وإن كان سائراً على الحق وعلى الصراط المستقيم، فهناك أحداث كثيرة حول هذا، فالله تعالى يمتحن عبده ببلايا ومصائب شتى لكي يسير العبد إلى ربّه طاهراً نقيّاً، وبذلك يظلّ ينتزه في منازل الجنة بما يشعر به من أمانٍ واطمئنان.

ستعرّض نحنُ أيضاً للغزبة عدّة مرّاتٍ وسنمتحنُ، وبذلك يُميّز الفحم عن الماس، والغث من السمين، والردى عن الجيد، والامتحان ضروري لا سيما في أيامنا الحالية، فالحيلولة دون التلوّن والتقلّب المحتمل في المستقبل لا يمكن إلا بعد خوض غمار مجموعة من المحن والاختبارات، لذا فإن الامتحان عامل مهم لمن ينوي أن يهب نفسه لتحمل عبء الدعوة إلى الله، والله تعالى هو الممتحن في الحال وفي المآل، وما علينا إلا الثبات والصبر والتزام بابه بكل صدق وعزيمة وإخلاص.

معيَارُ زِينَا

سؤال: ما المعيار الذي يجب أن تكون عليه أزيائنا وأثاث بيوتنا؟

الجواب: إن قضايانا نحن المسلمين تنطلق من الإيمان، وتستمر بالعبادة، وترتقي في المعاملة، ثم تتطوّر على شكلٍ يشمل عاداتنا وسلوكياتنا الشخصية، وتشكل كل قضية من هذه القضايا عمقاً خاصاً في الحياة المتعددة الأبعاد التي نعيشها، وفي معظم هذه القضايا وفي أمور أخرى لا نعرفها نشعرُ بحاجة مُلِحّةٍ إلى الرائد القائد.

ومفخرة الإنسانية وسيد الكونين محمد ﷺ هو خير قدوة لنا في فهم حقيقة الدين واستيعابها وتحويلها إلى واقع مُعاش، إننا حتى في الوقت الحالي نرى ونشعر وكأن روحانيته ﷺ التي توحى بالسكينة ترفرف فوق رؤوسنا، أما أصحاب القلوب المستنيرة فهم محظوظون بالشعور الدائم بهذه الروحانية.

وخلّف الرسول الكريم ﷺ في معظم القرون رجالاً عظاماً أزالوا السخام والصدأ عن القلوب رغم ما أتى عليه الزمان والحوادث، فأحيوا الدين، وكشفوا بأيديهم النورانية من جديد عن الهوية الحقيقية للروح المحمدية.

وقد اكتسبت هذه القضايا التي أسسها الصحابة بُعداً آخر على يد الإمام أبي حنيفة ومن على شاكلته من القامات الشامخة، ثم جاء من بعدهم رجال عظام أمثال الإمام الغزالي والإمام الرباني والإمام عبد القادر الكيلاني ومولانا جلال الدين الرومي ومهموم عصرنا الأستاذ الثورسي فتجددت تلك القضايا وحافظت دائماً على نشاطها وحيويتها، ورغم مرور هذا القدر من الزمان ومع كل هذه الغوائل فإننا ما زلنا نراها حتى في عصرنا نقيّة متجددة بفضل هذه الأيدي النورانية، فالحمد لله حمداً لا يُحدّ ولا يُحصى أنه لم يطرّدنا عن إحسانه، وجعلنا -دون حولٍ لنا ولا قوة- على مثل هذا الحوض النوراني، وإن انتقاءً لنا مع وجود من هم أنسب وأليق منا دليلاً على فضل الله وإحسانه علينا، وليس على قدراتنا وجدارتنا في شيء، ومن التحقوا بهذا الأمر دون كثير من السعي أو الجهد ربما يوافقوني الرأي في ذلك.

لقد بُينت لنا حتى الآن معظم القضايا الضرورية في الوقت الحاضر وفي المستقبل، وقام السلف بإنارة الطريق للخلف بما لا يدع مجالاً لأيّ شكٍ أو تردّدٍ، وما علينا بعد ذلك إلا أن نسير في هذا الطريق المنير فقط. ولنضرب مثلاً على هذه المسألة ممّا ورد بالسؤال: فمثلاً كلّ الجوانب الخاصة بالملبس والمأكّل والمشرّب ونظام البيت وأثاثه قد سُرحت لنا بشكل تطبيقي، فنجد رسول الله ﷺ يرقّد على الحصير، حتى أثر الحصير في جنبه المبارك ﷺ، وسيدنا أبو بكر ﷺ عندما تناول قدحاً من الماء البارد لم يتمالك نفسه فأجهش بالبكاء، فقليل له: ما يبكيك؟ قال: تذكّرتُ أن الله ﷻ سيحاسبني على كل هذه النعم، وسيدنا عمر ﷺ لما عرضت عليه ابنته حفصة أن يلبس ثوباً أجمل ممّا هو عليه وبّخها بشدة دون اعتبار أنها أمّ للمؤمنين أجمعين.

ولقد تمثّلت مثل هذه الفلسفة الحياتية التي شهد التاريخ آلافًا من أمثلتها التطبيقية على يد مهموم عصرنا ومن سار على دربه من المهمومين الآخرين، فتحقق هذا التوازن التام بين الدنيا والعقبى والروح والجسد مجدّدًا، وذكّر الناس بهذه الأمور مرّة أخرى.

أما نحن فلا يتأتى لنا أن نقول إننا قد استوعبنا هذه البساطة بكل جوانبها، يلزم أن نضع معيارًا لهذه البساطة حتى لا يستغربنا الناس، وأن يكون هذا المعيار أقصى حدّ نحافظ عليه ثم نطلق منه.

وأحيانًا ننخدع ونعتقد أن هذا سيؤثر إيجابيًا على مخاطبيننا، بيد أن بساطتنا هي خير دليل على تفانينا وإخلاصنا الذي تظهر آثاره في مخاطبيننا، ولقد استوقفتني يومًا كلمات صدرت عن رجلٍ من الطبقة المثقفة ما كنت أظن أن يقول مثل هذا الكلام، حيث قال: "صدّقوا هذا الرجل وثقّوا به، فما رأيْتُ في بيته إلا حصيرًا مثقوبَ الوسط"، فاعتبر هذا الرجل الحصير مدعاةً للتصديق والثقة.

وبما أن البذخ والترف لا حدّ لهما فلا يمكننا أن نبلغ منتهاهما، وأنا لا أتصوّر أن هذا البذخ ينفعنا في خدمتنا، فلنا أن نستخدم معيار عدم الاستغراب إلى حدّ ما، ولا يجوز لنا أكثر من ذلك.

obeikandi.com

الإستاذ النُّورسي ومدينة "وَان"

سؤال: يذكر أن بديع الزمان النُّورسي أشار ذات مرّة إلى جزيرة في بحيرة "وَان" قائلاً: "لو أعطوني هذه الجزيرة لأتخذتُ عليها أحد عشر طالباً أستطيع أن أتحدّى بهم العالم بأسره"، فهل هذا صحيح؟ وإن كان صحيحاً فكيف هذا؟

الجواب: كثيرةٌ هي الأقوال التي تُسندُ إلى العلماء العظام، وإذا ما أردنا الوقوفَ على السليم منها فيجبُ علينا إخضاعها لبعض المعايير، والتي يأتي في مقدمتها الاطلاع على مؤلّفات هذا العالم الذي نُسبَتْ له هذه الأقوال، فإنْ صودفت هذه الأقوال في كُتُبِهِ ومؤلّفاتِهِ فمقبولة، وإلا فلا أستطيع أن أقول برّدّها؛ حيث إنه لا بد من تحرّي الدقّة كثيراً في كلامنا، ووفقاً لهذا فمن المُحتَمَل أن يكون الأستاذ بديع الزمان قد ذكر مثل هذا القول، وإن ذكره فلا ريب أنه صحيح، إلّا أنني شخصياً لا أتذكّر أنني صادفت هذا القول في مؤلفاته.

ومع ذلك فعلى فَرَض أن شخصاً مثل بديع الزمان ربّى أفراداً في أيّ بقعةٍ من العالم فيمكنه أن يُغيّر كل العالم، ولا جرم أنه لا بدّ من مراعاة عنصر الوقت وطبيعة العمل المطلوب القيام به.

لقد حاول سيدنا عيسى عليه السلام فتح أبواب العالم بأحد عشر حوارياً ربّاهم فكسر شوكة إمبراطوريات العالم بهم، غير أن هذا الأمر لم يتوقف عند تلك الحقبة الزمنية، بل تخطّاها ودام لعدة عصور بعدها.

واستطاع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يُزلزل الأرض تحت أقدام الملوك خلال مدّة زمنيّة قصيرة، وبدعوة باكورتها امرأة وعبد ورجل، ولم يكُ أحدٌ في البداية يتوقع مثل هذه النتيجة، وأستميحك عذراً أن أقول هنا الشيء نفسه متجاوزاً حدّي: من الممكن أن نكشف عن هويتنا وذاتيتنا وأن نُبلِّغ العالم رسالة السماء بحفنة من الأفراد، إضافة إلى ذلك لقد ظهر عياناً بيّناً اليوم حقيقة هذه الطريقة التي سنّها لنا الأستاذ الثورسي، وقد استطعنا أن نرى ونشاهد الآن كل هذه الأمور التي تنبأ بها من قبل.

علاوة على ذلك فإن تلويح الأستاذ الثورسي بهذه البلدة يحمل أهمية خاصة؛ ولطالما كان يوحى لمن يمسون بمقاليد السياسة في عهد الدولة العلية والمشروطية والجمهورية بإقامة جامعة في مدينة "وأن" رغم كل المتغيرات السياسية والإدارية الواقعة في كل فترة من فترات حياته.

كانت هذه غايةً عظيمةً وجمرةً يتلظى بها قلبه، وقد لا يمكننا أن نستوعب تمام الحكمة من وراء ذلك، ولربما كان موقع مدينة "وأن" -من حيث كونها مركزاً لمنطقة غنيّة باللؤلؤ والألماس مثل الشرق الأوسط- هو الذي ساق هذا الإنسان العظيم إلى هذه الفكرة.

ولربما أراد أن يلفت الأنظار إلى الوضع الخاص للشرق، فرأى ضرورة إقامة جامعة يحدّد هو قواعدها الرئيسة؛ حتى يمكنها التصدي للأحداث المحتمل وقوعها في المستقبل، وظل ينادي بالحاج بإقامة جامعة "وأن".

قد تكون هناك حِكْمٌ لا حصرَ لها ولا نعلّمُها نحنُ، وإننا نأمل أن يتحقق هذا الأمر بالكيفية التي أرادها الأستاذ النُورسي في المستقبل، وسيشهد الذين يدركون سعادة رؤية ذلك اليوم كيف أن كل قول أو فعل لهؤلاء العظام يُمثِّلُ مرآةً لآلاف من الحكم دون حاجة إلى أي تأويل أو تفسير.

وإننا نتضرّع إلى من وسعت رحمته كلّ شيء أن يمنَّ علينا بتحقيق هذا الأمر بعد أن تبدّت لنا أماراته.

obeikandi.com

مقياس العفو عند المسلم

سؤال: ما الذي يجب أن يكون عليه مقياس العفو والسماح عند المسلم؟

الجواب: العفو والسماح والصفح من صفات المسلم، ويجب على كل مسلم الاتصاف بها، فالعفو والصفح يُساهمان في ترقيق القلوب وإيصال الحقائق إليها، ومع ذلك فمهما كانت هذه الصفة جيدة فيجب أن تكون متوازنة على مستوى معين، دون إفراط أو تفريط، كان الرسول ﷺ يعفو ويصفح إلى أقصى درجة ممكنة عن كل معاملة سيئة موجهة إلى شخصه، ولكن إن كانت هذه المعاملة تتعدى على الآخرين أو تنتهك أسساً من أسس الدين فتراه ينقلب إلى أسدٍ هصور حتى يأخذ الحق لصاحبه ويدفع عنه هذا البلاء.

لم يقل كلمة عتابٍ واحدة للصحابة الذين لم يستوعبوا تمامًا دقة الانقياد إلى أمره في معركة أحد؛ فتركوا أماكنهم وتسببوا في زعزعة جيش المسلمين، بل لم يُغلظ عليهم القول ألّبتة؛ أما ردّ فعله تجاه المعاملة الخسنة التي تعرض لها من قبل بدوي فظّ بدعوى المطالبة بحقه فكان التبسّم ثم الالتفات إلى الصحابة وأمره لهم بأن يعطوا البدوي ما طلب، وإنّ ما ذكرناه لهو غيضٌ من فيض ونقرة طائرٍ من بحرٍ أمثلة عديدة تثبت سعة مناخ العفو والسماح عنده ﷺ، أما العفو العام الذي أعلنه في مكة بعد فتحها فشيءٌ تحارّ له الألباب، ولا يصل إليه خيالُ إنساننا المعاصر.

لقد انخدع بعض المسلمين بدعاية أصحاب الإفك الذين حاولوا تشويه سمعة أمنا عائشة عليها السلام الطاهرة النقية التي تغبطها ملائكة السماء على عفتها، ومن بين هؤلاء الذين لطّخوا هذا الذيل الطاهر وافتروا على السيدة عائشة التي تتمنى أن تكتحلّ عيوننا بالتراب الذي تمشي عليه حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وآله، فلقد خدع هذا الشاعر أحد المنافقين بطريقة أو بأخرى، فوقع في شباك المفترين، وبعدما جاء الوحي ببراءة أمنا عائشة أقيم عليهم حدّ القذف، ثم مرت السنوات وتقدّم حسان في العمر، ولم تعد عيناه تبصران، يقول مسروق بن الأجدع: دَخَلْنَا عَلَى عَائِشَةَ عليها السلام، وَعِنْدَهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يُنْشِدُهَا شِعْرًا، يُشَبِّبُ بِأَيِّاتِ لَهُ: وَقَالَ: حَصَّانَ رَزَانٌ مَا تُزْنُ بِرَبِيبَةٍ وَتُضْبِحُ غَزْزِي مِنْ لُحُومِ الْعَوَافِلِ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: لَكِنَّكَ لَسْتَ كَذَلِكَ، قَالَ مَسْرُوقٌ: فَقُلْتُ لَهَا لِمَ تَأْذِنِينَ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكَ؟ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة النور: ١١/٢٤) فَقَالَتْ: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى؟ إِنَّهُ كَانَ يَنَافِحُ، أَوْ يَهَاجِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله ^(٩٢)، وفي رواية أخرى قالت السيدة عائشة عليها السلام سمعتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله يقول لحسان: "إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ، مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ" ^(٩٣).

وكان مسطح بن أثانة من بين من تورطوا في حديث الإفك مع أن أبا بكر صلى الله عليه وآله كان يتعهده وينفق عليه، وعندما ظهر اسمه بين المفترين أقسم أبو بكر صلى الله عليه وآله أنه سيكف عن مساعدته غضباً منه، ولكن سرعان ما نزلت الآية ﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُو الْفُضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(٩٢) صحيح البخاري، المغازي، ٣٦.

(٩٣) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٣٤.

(سورة التور: ٢٤/٢٢)، وما إن سمع أبو بكر رضي الله عنه كلمات هذه الآية حتى حنَّ بيمينه وأدى الكفارة ثم استمر في مساعدة مسطح ومعاونته والإحسان إليه وكان شيئاً لم يحدث.

هذه أمثلة حول قيام المؤمنين بالصفح عن أفضح وأقبح ما يمكن أن يُرتكب في حق أي شخص، والحقيقة أنهم استطاعوا النجاح في هذا الامتحان الصعب؛ وإن في ذلك لَعبرة لمن حملوا على عاتقهم مهمة تبليغ الحق والحقيقة.

على دُعائنا الحاليين النفوذ إلى القلوب، وبيان الحقائق بخلقهم الرفيع وبسماحتهم، ولا يظنّ أن الخشونة والحِدّة والغلظة تفيد في شيء، فلم تُجدِ نفعاً لا اليوم ولا في أيّ عهد سابق، أما المناخ الدافئ لِخُلُقِ الصّفيح والمسامحة فيستطيع إذابة العديد من جبال الثلج، فكم من عدوّ قَرَّرَ قتل الرسول ﷺ غيلةً، وبفضل عفو الرسول ﷺ وصفحه وُهبَت له الحياة ثم دخل في الإسلام وأصبح من أصدق أتباعه وأصحابه، ألم يكن خلق العفو والسماح لدى الرسول ﷺ هو الذي ألان قلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأسلَس قياده لرسول الله ﷺ؟ ألم يكن هذا الخلق الرفيع للرسول ﷺ هو الذي فتح قلب خالد بن الوليد رضي الله عنه لنور الإسلام فانقشعت عنه الظلمة؟ أليست كلّ هذه فيوضاتٍ نورانيةٍ انبثقت من مناخ عفو وسماحة سيدنا رسول الله ﷺ؟

والحقيقة أن الله تعالى يطلب هذا من كلّ داعيةٍ وواعظٍ ومبلّغ، فمع أنه بعلمه الأزليّ يعلم أنّ فرعون لن يهتدي إلا أنه عندما أرسل إليه موسى وهارون عليهما السلام أمرهما أن يقولوا له قولاً لينا فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (سورة طه: ٤٤/٢٠).

مهما تصرّف معارضونا تجاهنا بخشونةٍ وتعصّبٍ ورجعيّةٍ وغيرها من الأمور التي تصبّ في مصلحة أهل الكفر فعلينا أن نقابل هذه التصرفات بمرونةٍ وشهامةٍ تليقُ وحال المؤمنين، فهذا هو ما يوجه علينا المفهوم الأخلاقي الذي يعلّمنا إياه القرآن الكريم ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (سورة الفُرْقَان: ٧٢/٢٥)، إن الدستور الذي يجب أن يضعه المؤمن نصب عينيه على المستوى الفردي هو ما قاله ربنا تعالى ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة التَّغَابُن: ١٤/٦٤).

فالمؤمن الذي يتمنى ويأمل أن يتجلّى الله عليه بصفات الغفران والرحمة عليه أن يتخلّق بهما ويجعل من العفو والصفح جزءاً لا يتجزأ عن خُلُقهِ، لن يخسر الإنسان الذي جعل شيمته العفو والصفح أبداً في أي مرحلة من مراحل حياته، والذي يضع المستقبل نصب عينيه وهو يعيش حياته الحالية إنساناً قد وهبه الله تعالى موهبةً وحكمةً خاصةً به، والذين ينالون مثل هذا الفضل هم أيضاً ورثة المستقبل في هذه الدنيا.